روح محبات
فؤاد قنديل

ahmed

روح محبات
فؤاد قنديل

ahmed

روح محبات

فؤاد قنديل

عاد رشوان بعد الدفن فوجد ديكه الذي يماثله في الطول واقفا كالحارس خلف الباب. ابتهج قلبه للمشهد. جال بخاطره أنه إذا كان قد خسر ما يزيد على ثلاثين دجاجة وديكا هي هدية حماته السنوية, فقد عوَّضه الله بهذا الديك الذي أخلى له مكانا رحبا في قلبه.. حمد الله على ما رزق وأعطى. ربَّت ظهر الديك , ثم مضى إلى بيته... حكى لمحبات مصيبة الشيخ إبراهيم والعبء الذي ورثه عن وفاة زوجته.. تسعة أولاد في عين العدو.

قالت: الله يرزقهم

قال: المشكلة ليس الرزق.. المشكلة الخدمة

سحبت الطبلية من تحت السرير وحطت عليها أطباق العشاء.. الجبن والعسل.. البيض العائم في السمن.. الجرجير والخيار.

أكلا بشهية وسألها: هل بقي شيء من أم علي?

ردت بلهفة: نعم, فزت من مطرحها فأحضرت طبقا به بعض الرقاق مغموسا في اللبن.. كان رشوان يحبه ويطلبه دائًما .

استأنفا بعد العشاء حديثهما عن الشيخ إبراهيم وأولاده. كانت محبات لا تزال تصر على أنها ليست مشكلة, ويؤكد رشوان أنها مشكلة مادامت الزوجة قد رحلت وعلى الشيخ إبراهيم اليوم وقبل الغد أن يتزوج.. ولابد أن يتزوج أي امرأة لترعى وتخدم أولاده.. وربما لا ترعاهم ولا تخدمهم وتبدأ مشكلة قبولهم لها.. وحكايات لا تنتهي ومشاكل متجددة.

قالت محبات: أمر الله

اكتشف رشوان فجأة أنه كان يخوض فيما لا طائل من ورائه.. نفذ القضاء ورحلت الزوجة وبقي الأولاد ولم يبك الشيخ إبراهيم على الراحلة ولكنه كان يبكي على..

قبل أن يدلف رشوان إلى السرير, ألقى خلال النافذة نظرة على الدار وما حولها.. لمح الديك يتمشى في الممر المحيط بالبيت, تابعه لحظات وهو ير فيه الخفير المنتظر.. كان الديك يرفع رأسه بين الحين والحين ويطل من فوق السور على الطرقات والحقول التي غطتها خيمة الليل المعتمة.

همس في نبرة رضا: ديك عجيب صحيح

سألته محبات: هل لاحظت شيئا?

قال: لم أره نائمًا أبدا.. ديك النهار والليل

سألته: هل رأيته الآن?

أجابها وهو يجذب الستارة: يتمشى حول البيت في هدوء وثقة.

قالت: يهيأ لي أنه بني آدم مسخوط

ضحك ساخرا منها

– ماذا تقولين يا محبات.. هل تصدقين هذه الخرافات?

– ليست خرافات. قالت لنا أمهاتنا إن جنية من جنيات البحر خرجت إلى البر واختطفت شابا وتزوجته, وبعد أن شبعت منه خنقته وأخرجت بعد شهور إلى البر جثته, وبعد أيام أخذت غيره وتزوجته.

– صدقيني.. كلها خرافات.

تنبهت فجأة أنها أخطأت بقولها له : إنه بني آدم, إن قولها هذا يفتح له الباب للشك.. قررت ألا تستمر في دعواها.. تراجعت بدها ٍء

مستسلمة لرأيه.

–يمكن صحيح كانت خرافات حكاها الناس للناس وانتقلت إلينا..

أسرع قائلا : مؤكد.. والأهم من ذلك أنه لو كان مسخوطا سوف يبقى على حاله, أما هذا فقد جاءنا صغيرا ثم كبر أمامنا وتضخم.. أليس كذلك?

زلزل كلامه الأخير قناعتها بأنه مسخوط, لكنها تذكرت قول الدكتور رمزي إنه يقرأ أو يسمع عن مثل هذا الديك.. أنبأها رشوان أن العمدة يود الحضور لرؤية الديك.

– هل أنت الذي حدثته عن الديك?

– لا.. هو الذي قال إنه سمع به ويود أن يراه.

– يشرَّف وينور

– إذا حدد موعدا فلابد أن نستعد له لأنه بالطبع لن يحضر وحده.

لم ترد عليه, فقد خامرتها بشائر لحالة من الزهو. إنها ليست ككل النساء وبيتها ليس ككل البيوت. حاولت أن تتخيل منظر العمدة ورجال البلد وهم يطرقون بابها ويتجمعون في الفناء, ومن خلفهم كل أهل القرية.

تمددا في الفراش.. تسلل إلى حواسه بسرعة عبقها وريح أنوثتها الشهية.. نهض بجذعه وانحنى عليها.. أبعدته برقة.. قالت له:

– لابد أن نسميه.

ردته الفكرة الطريفة عن إكمال مشروعه الجنسي.. وشرعا معا يتبادلان اقتراح الأسماء, وكل منهما يرفض اقتراح الآخر, محاولا تقديم مبرراته.. عادي .. بلا معنى.. قديم.. غير ملائم.. يناسب

الأطفال.. يناسب الجبارين أو الحيوانات.. أنثوي.

بعد عشرات الأسماء لم يجدا مانعا في النهاية من قبول »الملك « اسما له.. هذا هو أقل وأقرب ما يناسبه من أسماء.

قال لها رشوان في النهاية, أيا ما كان اسمه فقد أصبح مطمئنًا عليها إذا غاب عنها لقضاء بعض الواجبات كتخليص الأوراق في البندر , وحضور اجتماع الجمعيات الزراعية الدوري في المديرية والقيام بواجبات العزاء في القر المجاورة أو السفر إلى أبعد من هذا, فقد كان من قبل مقيد ا وفي أغلب الأحوال رافضا للحركة.. أما الآن فالحارس موجود.

همست لنفسها وهي تغالب النوم: لو كان عندي عيل عمره حتى سنة لشعرت بالحماية وبأني لست وحيدة.

تحدث إليها رشوان بعض الوقت إلى أن اكتشف أنها لا تسمعه.

وأن السلطان صاحب الأمر والنهي على الأجساد قد طواها وطو كل ناس البلد.

في اليوم التالي وعند الضحى كانت أعداد كبيرة من الأولاد تعتلي السور.. كأنه مبنى مهم.. رؤوس.. رؤوس مختلفة, لكنها كلها فقيرة ومتسخة, وفي وسطها عيون.. تحدق, فيها تطلع وذكاء, جاؤوا جميعا ليشاهدوا الديك.

صبيان وبنات يدققون في ملامحه ويصفونه لبعضهم.

–شايف ُع رفه

–قد رغيف العيش

–ولا منقاره

–ولا دقنه الكبيرة

–أكبر من دقن الشيخ برهام

–أكبر بكتير يا بني

–شايف رجليه

–و ّلا مخالبه

قالت بنت من البنات:

–إلا ريشه وألوانه

ردت زميلتها

–صحيح.. ألوان غريبة

قال ولد كان إلى جوارها:

–ريش الديك بتاعنا »زي الريش ده «

زغدته البنت

–اتلقح.. ديك إيه يا أبو ديك

تجرأ ولد وصوب قشرة برتقال إلى الديك, لكن الديك لم يأبه,

تجاسر ولد آخر وألقى حصاة صغيرة. لم تصبه.. أعاد الكرة.. أصابت

جناحه, لكن الديك لم يتحرك.

زعق فيهم رشوان العائد من عمله, دهمتهم المباغتة فاختفوا في

غمضة عين.. بعد أن دخل رشوان.. شرعت الرؤوس الصغيرة في

الظهور.. واعتلى السور من جديد أصحاب النظرات المتطلعة

والقلوب المشتاقة للكائن الغريب.

شرعوا يشاكسون الديك بإلقاء الحصى والطوب والثمار الفاسدة,

ونو الثمر والقشور وما تلتقطه أيديهم من الأرض, وهو لا يكاد

يشعر بأن ثمة أحدا في العالم غيره.. كانت محبات موفقة في انتزاع

الاسم من المجهول بحيث يتناسب مع ديكها المرموق.

بعض الأولاد فكر أن يستفز الديك الصامت فقلد صياح الديكة.

–كوككو كوكو.. كوككوكوكو

كانوا يودون سماع آذانه, لكنه كان يتطلع إلى السماء كمن يراقب السحاب الذي يتشكل أو يحسب مد إمكانية أن تمطر.

نزل أحد الصبية الكبار وتقدم إلى الباب الخشبي بهدوء وحذر..

فتح الباب محاولاأن يدخل ليقترب منه ويتعرف على ملامحه عن كثب. كانت بيده عصا.. لمحه الديك فتحرك في اتجاهه, كأنه يقول له: إلا الباب.

وقف الولد في الانتظار, ظن أن الديك لن يواصل الطريق نحوه, إلا أنه قفز بغتة قفزة خاطفة فأصبح عند الباب.. ُبهت الولد ووقع ثم هب واقفا ومبتعد ا, وأخذ – حفظا لماء وجهه وتأكيد ا لجسارته– يطوح بالعصا في الهواء مهددا.

مد الديك جناحه فأغلق الباب. أدرك الولد أن مسألة الدخول ليست بالسهولة التي تصورها, وأن الديك عند الجد لن يدع الأمر يمر دون تصرف حاسم, رغم طيبته الظاهرة وصمته الثقيل.

ظل الأولاد يتزايدون ويحتشدون فوق السور. يواصلون معاكستهم للديك وظل هدوؤه محرض ا لهم على المزيد من المعابثة, ورميه بالحصى والأغصان المهشمة ومختلف المهملات, حتى فوجئوا به فوقهم باسط ا جناحيه يوشك أن ينقض عليهم, فزعروا كما لم يزعروا من قبل حتى في أحلامهم, وصرخوا بأعلى ما يستطيعون وهم يرونه عملاقا قويا, بإمكانه أن يحيط بهم بل ويحيط بالقرية كلها.

تساقطوا فوق بعض وتصادموا وتعثروا وتخبطوا, جر من استطاع وبقي في مكانه على الأرض من فقد القدرة على الحركة

وهربت منه الأعصاب وتملكه الرعب حتى أقعده, أما من ركض فلم يتوقف إلا بعيدا يتحسس رأسه المخبوطة وقدمه التي التوت, ومع ذلك جر على الأخر ولم يسمح للألم أن يسقطه, وكان هناك من سقط عليه الآخرون فزحف أو تحامل وأسرع طالبا النجاة .. الأصغر رقد على الأرض يبكي ويصرخ لا حول له ولا قوة.. والناس يضحكون على المشهد ومن كان له بين الفارين والساقطين أولاد فقد صرخ فزعا وسب الديك وصاحبته.

بعد لحظات زالت آثار الرعب وتسلل الرضا إلى القلوب الصغيرة لأنهم شاهدوا مالم يشهدوا من قبل, ولأنهم مازالوا أحياء والخسائر مهما كانت فهي بسيطة, رغم بكاء الصغار منهم على ما أصابهم, وأخيرا تناثروا مبتعدين مكتفين بما نالوا.

عاد الديك يتمشى بهدوء. يرفع ساقه باعتزاز كما يرفعها الجمل, ثم يحط مخالبه برقة وحنان على الأرض. أشعة الشمس تسقط على ظهره فتتجلى روعة الريش وتداخل ألوانه في سيمفونية من الجمال بديعة, ويبدو من المنظور الجانبي ُحس ُن بناء جسده الرشيق وطلعته النبيلة ليشكل ذلك مع الريش والعرف والذقن المزدوجة التي تهتز مع حركة رأسه, هيكلا غريبا. ومثيرا لا تشبع من رؤيته العين.

أطلت بعض النسوة العابرات على ما كان ينظر إليه الأولاد. قالت التي سبقتهن إلى النظر: يا حلاوة ياولاد.. جنينة حيوانات.. ياهناها محبات ياهناها.. تعالي شوفي يا صفية.

قالت صفية وهي تشهق: الله. سبحان الخلاق العظيم

أطلت ثالثة.. ثم ذهبن وجاء غيرهن يبدين العجب وما تيسر من الحسد.. لم يعد لكل أهل القرية حديث إلا عن الديك.. ديك

رشوان في رواية, وديك محبات في رواية.. إذا ذكره الرجال قالوا: ديك رشوان وإذا ذكرته النساء ق ْلن: ديك محبات.. وبعض الرجال يفضل أن يقول: ديك محبات, فذكر اسمها يمثل لهم متعة للسان والقلب, لأن محبات تقريب ا أجمل نساء البلد, ولطالما قال البعض: يدِّ ي الحلق للي َبلا ودان.

ويرد آخرون: ليس في زوجها شيء ُيعاب.. صحة وعلم وأدب.. أما ال ِخ ْلفة فهي أمر الله.

@ @2

رفض رشوان فكرة فرش ُحصر أو سجاجيد في فناء الدار ليجلس عليها العمدة والضيوف, خاصة أن العمدة قال إنه ذكر سيرة الديك أمام رئيس المباحث فطلب أن يحضر ويراه, وحدث أن ذكر رئيس المباحث الحكاية لمدير الأمن ونائبه فطلبا أن يشهدا هذه العجيبة, وكان عندهما عضوا مجلس الشعب, سمعا بالخبر وأبديا سعادتهما أن يكون في المحافظة التي يمثلانها في السلطة التشريعية مثل هذا المخلوق النادر إذا صدق العمدة في روايته. أما سكرتير عام المحافظة فقد علم بالصدفة ونقل المعلومة مع الشك فيها إلى مساعد وأمين الحزب الوطني وعدد ممن كانوا بمكتبه.

اتصل رئيس مباحث المركز بالعمدة أخبره أن مدير الأمن عرف وأبد رغبته في الحضور, وبعض القيادات طبعا ستشارك.

اقترح العمدة على رشوان استئجار كراسي فاخرة على حسابه على أن يقوم رشوان بالضيافة واستبعدا الفرش البلدي .. قام رشوان في اليوم المحدد للزيارة بتغطية الفناء كله بالرمل, ورص الكراسي الجلدية الحمراء, وحبس كل الطيور ماعدا الديك عريس الحفل.

فوجئ رشوان بالسيارات الفارهة تهجم على القرية وسارينات سيارات الشرطة تهدد من بعيد.. سيارات كثيرة تراصت أمام البيت وامتدت إلى الشوارع المحيطة وتزايدت فنزلت إلى أرض النادي الذي يقع في قلب القرية.. عشرات السيارات الكبيرة والصغيرة الخاصة والعامة.

كانت على باب البيت لافتة بيضاء كبيرة ومثلها بعرض الشارع مثبتة في البلكونة المقابلة أعلى المقهى مكتوب عليهما: رشوان وديكه يرحبان بالضيوف.

ضجيج وهرج.. عدو ودفع وصراخ وزغاريد وهتافات وتحية وعناق.. وجوه رسمية حمراء ووجوه بيضاء وسمراء.. بِ َد ل لامعة وربطات عنق ملونة... أولاد يركضون ويتعثرون في الأقدام وينحشرون في الزحام.

ضباط تنوء أكتافهم بما عليها من رتب.. نجوم وسيوف ونسور, وضباط صف ورقباء وعساكر يهرولون أمام الكبار, يفسحون الطريق ويفتحون الأبواب, ويلقون الرعب في قلوب المستقبلين حتى يعرفوا قدر الباشوات القادمين.

جلس الضيوف على الكراسي, ولم تكف الكراسي فوقف الكثيرون خلف القاعدين, وكلما جاء شخص مهم قام له الأقل أهمية, وتنازع أحيان ا المتشابهون في قلة الأهمية لحساب المهم الذي تأخر وصوله.

طلع الأولاد والرجال والنساء على السور وتجمعوا بالخارج, تزاحموا وتشاجروا بحثا عن مكان للجلوس أو فتحة للرؤية, صعد بعض الأولاد على الأشجار وعلى الأسطح المجاورة, في حين كان الديك يجلس في الصدر.. ذلك الجانب الذي يواجه الباب وظهره

للبيت, عن يمينه العمدة وعلى يساره مدير الأمن, بينما جلس رشوان على يمين العمدة وجلس عضوا مجلس الشعب على يسار مدير الأمن.. كانت فرقة المزمار البلدي بإخلاص شديد تنفخ آلاتها تواكبها رقصات الخيول النشوانة.

كانت محبات قد طلبت من طه الخياط أن ُيفصل »فيونكة « صفراء كبيرة لتعلقها في رقبة ديكها.. حيث اكتفت بها ورفضت فكرة أن يفصل له بدلة كاملة, لأنه جميل بريشه الملون وعوده الرشيق وذيله المرفوع عالي ا إلى مستو العرف, فهو ُمزين وأنيق رباني.

من الذي أخبر هؤلاء الصحفيين والمذيعين فجاؤوا بآلات التصوير والأوراق والمسجلات, ومضوا يصورون ويجمعون مادة صحفهم وبرامجهم الإذاعية.. يركضون نحو هذا الجانب وينفردون بهذا المسئول ويسألون هذا الضيف ويأخذون رأ الجماهير, ويسجلون زغاريد النساء اللاتي َحس ْدن محبات, وأكلت أكبادهن الغيرة.

.. ولا في فرح ابن العمدة حضر مثل هؤلاء الناس ولا هذا العدد من الكبارات .

كان إخوة محبات ورشوان وأولادهم قد لبسوا أجمل ما عندهم من ثياب ومضوا يوزعون الشربات والعصائر والحلو .. فوجئ الحضور بسيارتين كبيرتين تتوقفان وينزل منهما عدد من الأشخاص بينهم فتاة غاية في الجمال والأناقة.. أقبل عليها الجميع يحيونها ويرحبون بها.. تبعها شاب كان يلتصق بها.. طويل عريض لا يسمح لأحد بالاقتراب منها أو لمسها خاصة من الغوغاء والدهماء.. ظهر شاب ثان طويل, رقيق ووسيم مفروق الشعر من المنتصف وخلفهم ظهرت كاميرات التصوير التليفزيوني يحملها الفنيون.

كان الديك أعلى الحاضرين بفضل عرفه ورأسه الكبير, وأبرزهم بفضل ألوانه, أما َس ْم ُت ُه الهادئ الرصين فكان موضع دهشة حقيقية, ولم يمنعه هذا من أن يجلس في اعتداد يجيل بصره في كل ما يجري حوله دون أن يحرك رأسه أو يحولها.. بدا كأنه نصب تذكاري للكبرياء والشموخ.

ينظر في سكون مشغول الفكر.. هل ُتراه يدرك أن هؤلاء المحتفين قدموا لأجله.. مضى يمضغ الدهشة التي تتساقط على معالم حضرته المشرقة, تتمطى في عينيه الخيلاء, بينما العيون المحتشدة تمسح نظراتها في وبر عظمته.

العصير.. شربته المذيعة التليفزيونية التي خطفت الأبصار بنورها الباهر, وأشارت لآلات التصوير كي تتبعها حيثما ذهبت, استلت الميكروفون من غمده وشرعت تحاور, والكل يلقي بنفسه عليها أو بالقرب منها فالحارس الضخم تكفي منه نظرة.

كان المصور يسدد عين آلته إلى الضيف الذي تحاوره المذيعة لحظات, ثم يهمله ليحط نظرات آلته معظم الوقت على نجم الحفل الوحيد الذي يتفصد بهاء ومهابة.

عندما رأ أحد الضيوف أن المذيعة لن تلتفت إليه ولن تمر به الأضواء أبدا, وليس فيه أو لديه ما يدعو لذلك, أعلن أنه يود أن ُيلقي قصيدة شعر يهديها إلى »ديك بلدنا «, فلما بلغ النبأ آذان المذيعين والصحفيين, أسرعوا إليه بكل الأجهزة والأوراق والأقلام.

وقف الضيف لحظة يتمتع بالمجد, ثم سحب أطول نفس يمكنه أن يسحبه من حنايا جسمه النحيل, وانطلق يرتجل قصيدة بالفصحى من الشعر الحلمنتيشي خفيف الظل, لم تخل من صور بلاغية شائقة كشفت

عن اقتداره.. وكانت بالفعل لمحة ذكية وإضافة ذات قيمة لحفل تتويج الديك.. عبَّر فيها الشاعر عن فرحته وفرحة القرية كلها بابنها البار.. ذلك الديك الأصيل, وأكد أنها أول مرة تفرح فيها القرية بحق وعدَّد أوصاف الديك الجمالية والشكلية ودوره في توحيد القرية على الفرح والمحبة والوئام, وشكر الديك لأنه هو السبب في أن يحس المسئولون بأهل القرية ويكلفوا خاطرهم مشقة الحضور لرؤية الديك النادر..

وطلب من الجميع الدعاء له بدوام الصحة وطول العمر.

تحدث رشوان عن ظروف نشأة الديك ورعايته وزوجته له, وذكر بعض طرائفه وعاداته.. وختم بأنه اتفق مع زوجته السيدة محبات على تسمية الديك.. الملك.. ضحكت المذيعة وضحك الصحفيون..

وهلل الجميع .. اسمه الملك .. الملك .. وقال مدير الأمن وكان قريبا منه يتابع الحوار.

–الحمد لله إن بلدنا جمهورية

وتحدث العمدة وأعضاء مجلس الشعب وأمين الحزب الوطني

مال مدير الأمن على رشوان فسأله: هل يتكلم?

ضحك رشوان وقال: لا.. حتى الآن لا.. ربما في المستقبل

قال مدير الأمن بعد أن دعا عضوي مجلس الشعب والعمدة والآخرين للاستماع إليه: أنا أر أن نعيد تأهيل هذا الديك ونحس مهاراته ونكشف مواهبه. فنحاول أن نخصص له مدربا لتعليمه الرقص والحركات الاستعراضية الصعبة, وقد يوفق مدرب آخر في تعليمه النطق ثم الغناء, وهكذا نقدم للعالم أعجوبة حقيقية تساهم في تشجيع السياحة إلى هذه القرية والإقليم كله.

علق عضو مجلس الشعب: عندك حق يا باشا.. هو ليس تشجيع ا

للسياحة فقط ولكنه إثبات أننا لم نبق شيئا منحه الله لنا كما هو, بل أضفنا إليه إمكانات جديدة وطورناه وكلها تدخل في مجال الإعجاز.

قال العمدة: نبدأ أولابمدرب الرقص والاستعراض.

أسرع رشوان يقول: المهم أنه لن يخرج من عتبة الدار.. على المدرب الحضور إلى هنا.

طمأنه مدير الأمن: طبعا طبعا .

وقال رئيس المباحث: أقترح يا باشا تعيين حراسة عليه.. هذه ثروة قومية.. هذا الديك لم يعد ملكا للأستاذ رشوان وحده.. إنه ديكنا كلنا.. ديك الوطن.

قال عضو المجلس الآخر وهو يبتسم: يعني ليس من حق أحد أن يسبه أو يجرح كرامته بأي صورة.

ضحكوا جميعا إلا رشوان قال بجدية: لا داعي لحكاية الحراسة.. المطلوب فقط هدم هذا السور لأنه من الطوب اللبن وبناء آخر بالطوب الأحمر والأعمدة المسلحة وتعليته حتى لا يصعد إليه الأولاد, مع تغيير البوابة الخشبية التي لا تمنع رضيعا من الدخول إلى بوابة حديدية.

قال مدير الأمن: معقول.. وكم يتكلف هذا?

قال رشوان: لن تزيد التكلفة على ثلاثة آلاف جنيه, وبهذا أكون أنا المسئول عن حمايته, بدلامن تعيين حراس.. تكلفة السور تساوي أجر الحراسة لمدة سنة فقط.. وافق الجميع.. لكنهم تساءلوا عن الذي يتحمل التكاليف.

قال أحد عضوي مجلس الشعب وكان رئيسا للجنة السياحة والإعلام:

– أقترح أن تساهم المحافظة بالنصف وتتحمل القرية النصف لأنها ستستفيد من قدوم الوفود السياحية.

استمر الحوار يتنقل بينهم ويتصاعد, والضحكات تتعالى والصفقات تعقد واللقاءات تنظم, والديك كالملك مرفوع الرأس يتألق وجهه بين الحاضرين, محافظا على جلسته النبيلة التي لا ينقصها إلا أن يضع يده – إن كانت له يد – تحت ذقه أو على صدغه ليبدو كالمفكرين العباقرة, والمتشبهين بهم أيضا.

3@ @

لاحظ رشوان أن ارتفاع السور الجديد إلى نحو مترين لا يمنع الأولاد من الصعود. كان الكبار منهم يركضون في اتجاه السور ويقفزون عليه فتتعلق أصابعهم كالخطاطيف في أعلى السور, ثم يرفعون أجسامهم ويجثمون بصدورهم فوقه, أما الصغار فكان الواحد منهم ينحني ليصبح حمارا ويصعد زميله على ظهره, ويصعد ثان على الحمار نفسه , وقبل أن يصعد جميع الصاعدين يثور الحمار ويطلب أن يصبح غيره حمارا بدلامنه, يتمرد البعض وقد يرضى آخرون بشرط أن ينزل الذين صعدوا في البداية ليصبحوا حميرا.. وهكذا أصبح بيت رشوان هو لعبة كل الأولاد.. كل من يستطيع أن يمشي على قدميه ويغادر بيته, يسعى إلى بيت رشوان ليجد وسيلة أو أخر ليصعد حتى ير الملك.

فكر رشوان أن تبدأ السياحة الداخلية بتنظيم مواعيد للأولاد لمشاهدة الملك مباشرة عن طريق السماح لهم بالدخول من البوابة والتشرف بلقائه, والتحدث إليه مقابل رسم بسيط لا يزيد على عشرة قروش لكل ولد أو بنت تحت خمس عشرة سنة وربع جنيه للأكبر,

ويدخل من هو دون الثالثة مجانا, أما من يريد أن يلتقط الصور, فرسم آلة التصوير جنيه واحد وللصحفيين مجانا وهذه الأسعار تسري على أبناء القرية فقط وتزيد إلى الضعف في حالة المصريين الوافدين من خارجها, أما السياح الأجانب فخمسة أضعاف.. المهم أن يكون الدخول في شكل جماعات, ولا تزيد مدة الزيارة على ربع ساعة.

قبل أن ينفذ المشروع قرر رشوان أن يحقق التأمين الكامل للسور بوضع مانع قوي يحول دون صعود الأولاد فوقه, ورؤية الملك مجانا, فضلا عن تشويه المنظر العام للمكان الذي أصبح مركزا سياحيا.

َأ َم َر العمال فوضعوا فوق السور خلطة أسمنتية من الرمل والأسمنت والجبس, ثم دسوا فيها الزجاج المكسور والمسامير بحيث تكون رؤوسها لأسفل, وعلى سطح الخلطة رشوا مسحوق الزجاج, حتى تتمزق أي يد يمكن أن تمتد إلى السور أو تلمس شفته العليا.

في الداخل زرع شتلات شجر الجازورين والفيكس البلدي ملاصقا للسور حتى إذا كبر وعلا لا ير أحد شيئا, لا الصاعد فوق السور ولا المطل من أسطح البيوت المجاورة أو من شرفة عبدالعال ولا من شرفة محسنة.

عندما اطمأن إلى كفاءة السور, ولعدة أيام لم ير جنس مخلوق يقترب منه. ذهب إلى العمدة يطلب الموافقة على بدء تنفيذ نظام الزيارة إلى الملك.

استفسر العمدة عن كل الجوانب الخاصة بالمشروع, أنبأه رشوان أنه عمل كل الاحتياطات حتى تتحقق الفائدة المرجوة.

تدارسا الأسعار جيدا ومد ملائمتها لحالة الأهالي المالية.. وأخيرا وافق العمدة.. بشرط:

– اشرط

– لي النصف

عندئذ ساد الصمت.. طال بقدر حيرة رشوان التي انتهت مؤقتا بقوله:

– لكن يا حضرة العمدة.. أنت تعلم أني أنفقت فوق الألفي جنيه على السور.

– ودفعت المحافظة مثلها.

–لم يكن الاتفاق كذلك.. كانت القرية مفروض تدفع.. لم تدفع مليًما .

– الناس غلابة يا أستاذ رشوان.

– أنا دفعت والمحافظة دفعت, فما وضعك أنت?

– يبدو أنك لا تقرأ.

– بل أقرأ.

– ماذا تقرأ?

تمهل رشوان متوجسا ثم قال :

– أقرأ كتبا في التاريخ والعلوم الزراعية وسير العظماء.

– لا.. لا فائدة من كل هذا.. إذا أردت أن تفهم الحياة فاقرأ في السياسة والاقتصاد.

اندفع رشوان قائلا وقد احمر وجهه :

– هل السياسة قالت أعط العمدة النصف?

– نعم .

– متى قالت ذلك وأين?

– قالته منذ زمن.. ُع ْر ٌف َسنَّ ه الرؤساء القدامى واتبعه الخلف

وخلف الخلف.

ران الصمت لحظة, واستأنف العمدة قائلا :

– بسيطة.. أنا كاذب.. اسأل أي واحد من كبار الموظفين, ألم تصبح صديقا لرئيس المباحث ومدير الأمن? ألم تتعرف على أعضاء مجلس الشعب? اسألهم.

زادت الحيرة, بلبلت رأس رشوان الذي تصور أنه قادر على التخلص منها في البداية.. عاد يتساءل ويضغط على الحروف متعجبا.

– النصف يا عمدة!

أجابه العمدة بكل ثقة وثبات: نعم.. النصف

لا يزال رشوان يفكر كيف يفتت هذا النصف.. نبتت في خاطره فكرة حول ضخامة مصروفات تربية الديك.. سوف يبالغ قليلا حتى يخفف من اتساع كرش العمدة.

– أنت تعلم يا حضرة العمدة أن ديكنا ليس كأي ديك, لكنك لا تعلم أنه وهو كتكوت اشتريته بخمسين جنيها في مزاد.

ضحك العمدة ساخرا, واستأنف رشوان:

–هذا الديك ليس مصري الأصل إنه أمريكي, جد جده كان رئيس قبيلة من الهنود الحمر, وجدته كانت كاهنة في معبد وساحرة.. ولا تنتج البطن غير عشرة في السنة.. أمريكا صدرت عشرين كتكوتا فقط إلى منطقة الشرق الأوسط.. لم يبق منها إلا الملك.

قاطعه العمدة.

–يا أستاذ رشوان لا صالح لي بكل ذلك.. هل ستحكي لي سيرة حياته?!. أنا لي النصف ولا أقول الثلثين .

تنهد رشوان: هذا الرجل لا حد لطمعه.. لابد من مقاومته بأي

وسيلة..

–يا حضرة العمدة من حقك عليَّأن أعرفك كل شيء عن الملك الذي يهمك أمره.. هل تحسب أنه يأكل كما يأكل دجاجك.. ذرة وبرسيما وقشا؟ لا.. إنه يأكل في الصباح صفار البيض مسلوقا ثم مقليا في السمن مضافا إليه مسحوق عين الجمل, وفي الظهر يكتفي بكبد السمك نيئا وعيون الحمام مقلية في زيت الزيتون..

أما.

– يكفي يا أستاذ رشوان.. هل تر العصافير مدقوقة على صدغي؟ لقد كانت موجودة من قبل.. ثم طارت.

– يبدو أنك لا تصدقني.

–كيف أصدقك يا رجل؟ أنا طول عمري أحترمك

– أنت لم تشاهد الكتالوج الذي يوزع مع الكتكوت.. لقد تخلصت من كل الدواجن والبهائم, وحرمت نفسي وبيتي منها لأجله..

هذه هي شروط تربيته, لابد أن يمشي على أرض نظيفة تماما.. تراب نعم, لكنها طاهرة ولا تطؤها نملة.. هل رأيت الدواسة التي وضعتها أمام البوابة حتى أمسح بها حذائي.. يبدو أنك لا تقرأ عن الموجة الجديدة من الطيور في أوروبا.

– الموجة الجديدة !

– أفق يا عمدة.. أنت تعيش كما كان الناس يعيشون منذ ألف عام.. لك أن تفخر بأن قريتنا هي أول قرية في الشرق الأوسط نجح فيها وعاش هذا الديك وماتت كل الديوك التي وصلت المنطقة..

وهذا مسجل في موسوعة الديوك التي تصدرها المؤسسة العالمية, وبها اسم القرية, واسمك بوصفك راعي القرية.

ابتسم العمدة.. وقال: موسوعة!

–موسوعة ضخمة تطبع بجميع لغات العالم خاصة بهذا النوع من الديوك فقط, والمؤسسة لا تصدر إلا موسوعتين.. موسوعة الديوك وموسوعة رؤساء الجمهوريات.

–والله براوة يا أستاذ رشوان.

–هذا كله بفضل تربيتي ورعايتي وتنفيذي الدقيق لكل كلمة وحرف في الكتالوج.. كل فلوسي ضايعة عليه.

بدا على العمدة أنه يكاد يصدق أن المسألة ليست بالبساطة التي تصورها, وأن عليه أن يحاول بذل مجهود ليفهم هذا الكائن المعجزة.

انبسطت قليلا أسارير العمدة وهو يقول: الطب اتقدم ياولاد .

عاجله رشوان بقوله:

– هل تعرف ماذا يشرب?

سأل العمدة وهو يحاول التخلص من حالة الشرود التي أصابته فهي لا تليق بعمدة, وأبد استعدادا للتعلم حتى لا يبدو وسط رجال الدولة جاهلا .

–ماذا يشرب?

–في الصباح يشرب عصير تفاح مثلجا وفي الظهر مع الطعام مياها معدنية, أو أي مشروب بلا لون, وفي المساء يفضل الموز باللبن, وطبعا أخذ مني وقتا طويلا وجهدا كبيرا ومصاريف كثيرة حتى أَقْلَعَ عن الخمور قبل النوم.

–خمور!

–سلو بلدهم يا عمدة.. ناهيك عن مصاريف علاجه إذا اشتكى من صداع أو زكام أو كحة أو إسهال.

–غريبة يا أستاذ رشوان.

–هل تحسبه يرضى أن يستحم بالصابون الذي تستحم به؟

–وماذا به الصابون الذي أستحم به؟

–لا يا عمدة لا.. كل أنواع صابون البشر تسبب له السعال أو الرغبة في الهرش, إنه لا يستعمل إلا صابونا مخصوصا اسمه الروك آند رول... الدولة تمنع استيراده, فيأتي مهربا.

–هل تقول الحق يا أستاذ رشوان؟!

–وهل عهدتني إلا محبا لحق؟

تنهد العمدة وقال:

–والله ما كنت أعرف شيئا عن هذا وأنت بطبعك قليل الكلام لم توضح لي المسألة.

–كنت أعتبرها مسألة خاصة, وأنا لا أحب أن أحمل الناس مشاكلي, لكن عندما تحولت إلى موضوع عام.. لابد أن المسئول الكبير يعرف, ولابد من المشاركة والتعاون.

–من أجل خاطرك يا أستاذ رشوان سأنزل بالعمولة إلى .. إلى الثلث.

هب رشوان واقفا وهو يقول بحدة:

–ساعة كاملة أشرح لك حالة الديك ومصاريفه وكيف وصل إلى ما هو عليه وما اقتضاه ذلك من جهد ووقت وتقول الثلث.. الله الغني.

وقف العمدة بصعوبة وجذبه من كمه قائلا :

–اصبر يا رجل.. أنت ناسي أني سوف أقوم بإقناع الناس بالرسوم, وتشجيعهم على الزيارة, وأجلب لك ناسا من خارج البلد

وأعمل للملك الدعاية اللازمة وأرسل لك المدرسة فصلا فصلا ومدارس البلاد المجاورة.

لم يهدأ رشوان بعد سماع هذا الكلام, لكنه هدأ واستعد للموافقة بعد أن خطرت بباله فكرة استحسنها, وهي أن العمدة لن يعرف بالداخلين والخارجين.

استمر العمدة في حديثه يعدد ما سيفعل ليصبح الثلث حلالافي نظر رشوان, الذي أخيرا قال:

– طيب يا حضرة العمدة.. لِ َي ُك ْن ما تراه

– نقرأ الفاتحة

بعد الفاتحة قال العمدة:

– على بركة الله, والآن اختر بين أسلوبين لحصر الإيراد.. إما أن أعين على بابك خفيرا يحصل الإيراد أو أطبع تذاكر لا يصرح بالدخول عندك بدونها والتذاكر تصرف من عندي.

ُأ ْس ِق َط في يد رشوان, لكنه صاغرا وافق واختار أن يطبع العمدة التذاكر وليس ثمة داع لخفير يقف على بابه.. قبل أن يخرج رشوان..

قال له العمدة:

–والحكومة لها الثلث.

توقف رشوان مبهوت ا, فابتسم العمدة في دهاء وقال:

–لا تفزع.. سأنقذك منها.. إذا سرت معي على الصراط المستقيم

–طمئن ي أولاكيف سنخرج من هذه الورطة?

قال العمدة بثقة وهو يشير بإصبعه إلى مخه:

–خمس سنوات إعفاء للمشروعات السياحية

ت َأ هب رشوان للخروج وهو يقول:

– الحكومة لها نظرة في اختيار العمد.. سلام

@ @4

انحنى عليها. تأمل لحظات وجهها المليح.. زورق أبيض يخوض في بحار شعرها المتناثر.. ورد الصبا يتفجر بالجمال من الخدود التي توجتها أهداب طويلة.. تأمل الجبهة العريضة وطاف بالأنف المدبب وتوقف عند الذقن المستديرة الناعمة.

خامره إحساس بالبهجة لأنه يمتلك هذا الكائن, الذي لا يكاد يشبه كائن ًا آخر في القرية كلها.

بدا واضحا أنها منقوعة في برميل النعاس, ولاتبدو بارقة أمل تشي بأنها ستصحو قريبا برغم النور المتسلل من خصاص النافذة, ورغم زقزقات العصافير التي انطلقت مبكرا لتأكل وتمرح وتغني, فقد كان الليل بالنسبة لها طويلا , وعليها إذن أن تفرج عن الأجنحة والأرواح والأغنيات الأسيرة.

هزها وهو يقول: إصحي.. صباحية مباركة يا عروسة

ضحكت رغما عنها.. شقت حجب النوم بسمتها لترتسم على محياها كله بعد أن نفذت إلى عمق نومها كلماته.

– صباحية مباركة بعد تسع سنين يا راجل..!

قال: كل يوم حلو يمر علينا, صباحية مباركة.. يوم الجمعة بالذات صباحه مختلف.. غير كل الصباحات.. مشرق ولذيذ .. هيا..

تركها وخرج إلى ساحة بيته الأمامية.. أسرعت نحوه عشرات الدجاجات والديكة التي استبد بها الجوع, وأنبت اليأس في قلوبها فراغ الفناء من أي »فتفوتة « خبز, وغياب البشر أصحاب الدار..

مسحوا الفناء نقرا بالمناقير وحفرا بالأظافر الصغيرة الطرية قبل أن

يشرق على الدنيا نور الصباح.

عاد رشوان إلى الداخل فملأ كفه الكبيرة بكمية من الذرة الصفراء.. جلس على دكة خشبية ينعم بالدفء الذي تنشره الشمس على العباد.. أحس بالحرارة تنفذ من ملابسه وتدغدغ جلده, وتنسل منه إلى لحمه وعظمه. تتحول داخل بدنه إلى لذة وابتهاج.

التفت حوله برابر الدجاج.. أكبرها لم تنشق عنها البيضة إلا منذ ثلاثة أشهر.

مضى يتسلى بمشاهدتها وهي تجري في إثر حبات الذرة.. تندفع جميعها وراء الحبة التي تسقط إلى اليمين, ثم تعدو جميعها وراء الحبة التي تسقط إلى اليسار.. وكلها تركض صوب التي يلقيها بالقرب منه والتي يلقيها بعيدا.. تساءل عن أي الحواس تعتمد عليها الدواجن, ورجَّح أنها السمع.

طلعت عليه محبات بعودها الممشوق ووجهها المضيء وقد تألق بعد الحمام , أضاف الثوب الوردي الطويل الكثير إلى بهائها الساطع. في يدها طبق به رأس من الثوم.. رأت الكتاكيت المنهكة في القفز والركض وراء الحب.. قالت لرشوان.

–حرام عليك.. قطعت أنفاسها.

لم يرد.. بدا عليه أنه اكتشف ظلمه لها.. نسي في غمرة فرحته أنه بالفعل هد حيلها.. قذف كل ما معه دفعة واحدة.. انقضت عليه وتدافعت وتعجلت الالتقاط, لعلها تعوض بعض ما أصابها من الحرمان عندما كان البشر عنها غافلين, يضمهم بين أحضانه دفء الفراش وثقل النوم.

جلست محبات على جذع شجرة. حطت الطبق في حجرها,

أعملت يدها في تقشير فصوص الثوم, بينما عيناها تراقبان دجاجاتها الصغيرات.. على ملامحها علامات الرضا.. تستبي الطيور فؤادها وتنقر على زجاج روحها.

كانت تحدق فيها وقد تجمعت كلها حول الحب وتداخلت في بقعة واحدة, جسم واحد ينبض بالحركة, بينما الرؤوس مختفية عند الأقدام, تختطف الحب بقدر ما تسعف المناقير الصغيرة.

قالت في نفسها: كل صغ ٍير جميل.

التفت إليها رشوان.. طالعه وجهها الشهي النضر, يتفجر شبابا بعد أن لفحته أشعة الشمس, فاكتسى البياض احمرارا وتوهجا.

قال: هل ترين ما أراه?

قالت: أر أنها باسم الله ما شاء الله تكبر بسرعة.. هذه دائًما تربية أمي, وقد لاحظت أنت ذلك طوال السنوات الماضية.

قال: هذا صحيح, لكن ألا تلاحظين شيئا آخر?

سألته: هل تقصد الديك الكبير?

–نعم

–ماذا به?

–إنه قليل الإقبال على الطعام

–يحب أن يراها تأكل

–غريبة

ضحكت وقالت: هكذا الديوك عادة.. لا تأكل إلا بعد أن تأكل الدجاجات.

ابتسم وقد تنبه لإشارتها, وقال: أتحدث عن هذا الديك العالي بالذات.. إذا عثر على الحب أو أي شيء يؤكل في موضع لا تراه البقية,

يسرع بالنداء عليها.

–أرأيت

–ومع ذلك كبر بدرجة أسرع, ويبدو بينها كأنه من جيل أسبق.

–دعك من هذا, وانظر إلى شكله الجميل ومشيته ونظراته وإحساسه بالعظمة.

–لكنه لم يؤذن حتى الآن في حين أن الديكة الأصغر منه تؤذن.

شردت لحظات وقالت:

–غريبة

–كانت في بيتنا ديوك صغيرة.. مجرد كتاكيت, لكنها تؤذن.

– لا تنس أنه لا يزال في السن صغيرا, لا تنظر لطوله وعرضه.

–أقول لك كانت الكتاكيت عندنا تؤذن.

قالت وهي تنهض:

–عندكم.

تعودت أم محبات أن تبعث إلى هذين الزوجين الوحيدين كل عام, قفصا كبيرا يضم وراء قضبانه الخشبية من عشرين إلى ثلاثين بربرة, يعيشان عليها وعلى ذريتها وعلى بيضها طوال العام إلى أن تصل الدفعة التالية.. تجري الدجاجات في الفناء, وينشغل بها الزوجان, تملأ عليهما الدار الواسعة.. تصبح هذه الدجاجات جزءا مهما من تكوين العالم, كالشمس والليل والنهار.. كالحب والجنس والنور والظل والغذاء والنوم.

في تربية الطيور كان حظ الأم موفقا جدا, تربي وترسل لبناتها الثلاث المتزوجات.. القرية كلها تعرف أن طيورها تكبر حتى تصل إلى أحجام غير عادية, أما الديوك فتبلغ ارتفاعات عالية, وصل أحدها

منذ عدة أعوام إلى ما يقرب المتر, وكان أعجوبة بعرفه القاني الكبير وتألق حديقة الألوان على ظهره ورقبته.

تغار النسوة ويسألن عن السر في ذلك, مع أنهن جميعا يشترين من بائع واحد يمر حاملا أقفاص الدجاج على بغل كبير وسألوها عن الطعام فإذا هو الطعام نفسه, ولما قالت واحدة منهن إنها تغني لها..

غنت جميع النساء للدجاجات, فلم يتغير الحال.. أخيرا وبعد سنوات

هل يا ُتر خفَّت حدة الغيرة!

لا أحد يعلم

ظل رشوان يرقب طيوره مستمتعا بحركتها وعراكها البريء وصراعاتها الصغيرة الخاطفة.. ظهر الديك الرومي الكبير خارجا من عشته المجاورة للطلمبة, مضى في اعتزاز »يقرقر «, ويحك طرفي جناحيه السفليين في الأرض, تشمله حالة أقرب إلى الغضب والاستنفار, كلما رأ الديك الجديد المتطاوس.

تتلبسه الحالة وتشتد.. يحتقن وجهه.. يحاول أن يعلن عن وجوده, وأنه في هذه الدار هو الكبير, مهما كبر العيال وتفحلت أجسامهم.

طفا على سطح ذاكرة رشوان قول محبات.

–لا تنظر لطوله وعرضه.

كان قد قال لها : إن الديك رغم حجمه لا يؤذن.

لم يستطع أن يتقبل عبارة محبات على أنها جاءت عفو الخاطر أو بريئة وخالية من التلميحات.

شعر ببرودة مباغتة.. كيف اقتحمته هذه البرودة وهو منذ ساعة يستدفئ بحرارة شمس تتألق في سماء صافية.

لم يكن رشوان ومحبات قد رزقا بولد ولا حتى س ْقط ميت رغم

مرور تسع سنوات على زواجهما, وهو لا يشكو من شيء البتة غير تأخر وصول الغلام.

هل ُي َعد من لا ينجب شخصا عجيبا أو غير عادي.. في هذه القرية يبدو كذلك, بل إن ثمة شعورا في النفوس تجاهه, إما الرثاء أو الشفقة, وقد يكون شعورا بالاستخفاف.. وأحيانا يشوب الحديث مع من لا ينجب قدر من التحفظ والانتباه حتى لا يجرح أحد إحساسه بوصفه شخصا ذا عاهة.

Ïã$sù 'oÎTÎ)≦× xî š□Ï9≡sOE‰´# ∪⊃∄∩ (ª!$# u™!$t±o„ βr& Hωî 4) s9θà)s? Ÿωuρ—£ ô“($t±Ï9™<

è%uρ≦tƒÏ‰ôγtƒ βr& #©|¤tã ö—ÏB z>t□ø%L{ 'nÎ1u‘ Ç—x‹≈yδ ô# MŠÅ¡nΣ #sOEÎ) š□−/§‘ □ä.øOE$#uρ|

‘Y‰x©u# (

قرآن الجمعة أنقذ رشوان من أفكاره التعسة.. مضى إلى المرحاض ليتخفف وإلى الطلمبة ليتوضأ.. ظهرت محبات فجأة لتدير له الطلمبة.. كانت مضبوطة على تحركاته.. اثنان لا ثالث لهما إلا الطيور وخروفان وكلب ولا توجد جاموسة أو حمار.. قطعة أرض صغيرة يزرعها له أخوه عبد الغفار.

بعد أن حصل رشوان على دبلوم الزراعة من عشرين سنة عمل بالجمعية الزراعية حتى أصبح الآن رئيسها.

ارتد جلبابه الصوفي البني الغامق.. سوَّ في المرآة الطاقية الجديدة على رأسه الصلعاء الكبيرة المستديرة.. دخل في عباءته المشمشية, وتعطر والتقط السبحة.. عبر الفناء الكبير مرعى الشمس والطيور.. أسرعت جميعا إليه إلا الديكين.

دنا منه الكلب فقذف قدمه في وجهه دون أن يلمسه.. تراقص

الكلب حوله.. زعق فيه.. لمست قدم الكلب الخلفية إحد

الدجاجات.. تعثرت ووقعت.. أسرع الديك فنقر الكلب في مؤخرته,

فوجئ الكلب وانشغل عن مداعبة صاحب البيت بالتحديق في هذا

الخصم الجديد الذي لم يكن قد خطر على باله من قبل.

اجتاز رشوان البوابة الخشبية القصيرة بجسده الفارع, وسوَّ

عباءته على كتفيه.. اتخذ طريقه إلى المسجد.. تجنب بحيرات الماء التي

ألقتها النساء في الصباح.. مياه الحموم المبقعة برغاوي الصابون

البيضاء.. مازالت له في الجو روائح نفاذة.. كانت بعض النسوة قد

تأخرن في رش الأرض بمياه حمامهن, ولما التقت وجوههن تبادلن

تحية الصباح ضاحكات.

بدا النهار محتفيا بيوم الجمعة, بهيا ومزدهرا.. يتعالى في الآفاق

ويتردد الصوت النقي الرخيم لقارئ القرآن يتلو آيات من سورة

الكهف : (ÏBÌ□ôfßϑø9$# “u□tIsù Ü=≈tGÅ3ø9$#]⌋É)Ï□ô±ãB t]⌋ÏμŠÏù $£ϑÏB t yìÅÊãpuρ

Hωî) ¸ou□□Î7x. Ÿωuρ Zou□□Éó|¹ â‘ÏŠ$tóãƒ Ÿω É=≈tGÅ6ø9$# #x‹≈yδ ÉA$tB $oΨtGn=÷ƒuθ≈tƒ tβθä9θà)tƒuρ

Y‰tnr& y7●/u‘ ÞOÎ=ôàtƒ Ÿωuρ 3 #Z□ÅÑ%tn (#θè=Ïϑtã $tB# (&ρß‰y`uρuρ 4 $yγ8|Áômr#)

لم يكن رشوان محافظا على الصلاة, لكنه كان حريصا أن يصلي

الجمعة لأن القرية كلها تكون في المسجد.

حيا رشوان كل من التقاه وحيوه.. كان كلام محبات لا يزال يتمشى

في رأسه ويخبط في جنباتها.. لا تنظر إلى طوله وعرضه.. لكنه

لا يؤذن.. لا يؤذن مثلك يا رشوان.. أنت لا تؤذن في سراديب محبات

التي تشتاق إلى أن يتحول الأذان إلى أولاد تجري في ساحة الدار

وتملؤها كما تفعل الطيور.. الأولاد شيء آخر.

أخبره الأطباء أن العيب عنده.. أغمض عينيه لحظة.. كان قبل الزواج مثل هذا الديك, كل بنات القرية يتمنينه زوج ا.. طول وعرض وشباب.. وظيفة حكومية..

أمه اختارت محبات وقد رضي تماما عن هذا الاختيار.. ليس لديها ما تلام عليه, لكن المال والبنون زينة الحياة الدنيا, قال له بعض الأطباء إنه في حاجة إلى علاج طويل ومكلف, وافق وتناول ما كتبوه.

أشار عليه أحدهم أن يحقنه في ظهره بحقن هرمونات.. إنها مع غلاء سعرها مضمونة الآثر 80 %, نفذ على الفور وتحمل الحقنة المؤلمة التي تنفذ بين الصلب والترائب.. لكن دون جدو .

جرب الوصفات البلدية والطب الشعبي وقطع مئات الكيلو مترات حيث الدجالين والمشعوذين, ومن يفتحون الكتاب ويقرأون الفنجان والكف.. سد .. كل ذلك ذهب سد .

زار الأولياء من السيد البدوي إلى المرسي أبو العباس والقناوي والدسوقي وختم بالحسين والسيدة.. قدم الهبات ووفى بالنذور وذبح الأضاحي على أعتاب الأضرحة ووزع على الفقراء في المناسبات المختلفة تقربا إلى أصحاب الأضرحة.

فجأة ضاق بالمشوار كله منذ عام, وأوقف كل الخطط, ورفض بدون مناقشة كل العروض المقترحة لحل اللغز.. قرر فقط أن يرضي محبات ويحقق لها ما تتمنى ليعيشا في سعادة, مادام الأمل في الإنجاب لا يبدو ما يشير ولو بنسبة واحد في المليون إلى أنه يعرف عنوانه.

بينما كان ينوي أن يصلي ركعتين تحية للمسجد, كانت محبات في الشباك تنظر إلى دجاجها, وكانت الحدأة أيضا في السماء تنظر.. أخذت

تدور في الفضاء, تبتعد وتقترب, وفوق الفناء تحوم.. تحوم.. وتحوم.. ثم انقضت فجأة كالصاعقة على الدجاجات الصغيرة التي تمرح في ضوء الشمس.. قبل أن تلمس كتكوتا واحدا كان الديك تحتها مباشرة.. ارتبكت الحدأة, وتلاطمت أجنحتها وأوشكت على الوقوع, ثم انطلقت تطير في غير اتزان.. طارت بعيدا بعيدا, وظلت عيون محبات ترقبها في هدوء وثقة بعد أن استقر قلبها في موضعه, وكاد منذ لحظات أن يقفز من صدرها فزعا على الأرواح الصغيرة.

@ @5

كلما دخلت عليها جارة قالت:

– ما أحلى دجاجاتك يا محبات !

وكلما دخل رجل قال لرشوان: زوجتك فالحة.. جعلت لك البيت عامرا.. بارك الله فيها.

محبات تؤمن بالحسد ونساء القرية كذلك إيمان ا لا يتزعزع, لعله إيمان أنبتته في أرواحهن الوراثة لا التجربة.. آه من كل العيون التي تر الجمال والخير ولا تصلي على النبي. سواء العيون الشبعانة أو العيون التي لا يملؤها إلا التراب.

شرعت الدجاجات واحدة في إثر الأخر يصفر لونها, تهدأ حركتها ويفتر نشاطها, ثم تنصرف عن الطعام, فلا تركض إليه حيث يكون, وقد كانت تنقر الأرض بالمناقير والمخالب بحثا عن الحب أو فتاته كلما تأخر المدد, وكثيرا ما كانت تعثر على بقايا الخبز أو هشيم البرسيم وغيره من النباتات, ولا تعجز في حالة القحط التام عن اصطياد ما يملأ ركنا في الحواصل حتى لو كان ذبابا طائرا, أو الرضا بفضلات طازجة تتخلص منها العصافير والحمام

والإنسان.

مادام هناك نور, تظل تنقب عما يصلح أن يكون طعاما.. وإذا استشعرت شيئا من الامتلاء يخلو بالها للعب مع بعضها أو مع أعمدة الضوء وبحيرات الظل أو مع الحشرات التي تطير وقد تتعلق بالجدارن.. نشاط دائم وحركة لا تكل, ولهو ومرح.

لما كبرت قليلا أحست بحاجة أجسامها للجنس فسعت إليه ومارسته وتبادلته وانتعشت وأقبلت على الحياة, و َسرَّها ما آلت إليه, وتلذذت بالدبيب الذي يحدثه تأهب عنقود البيض للتشكل في أحشائها, وتكوَّن لأجل ذلك ريش ناعم جدا كالقطن محيطا بالمؤخرات.. البوابة التي يعبرها البيض من الظلمات إلى النور..

عالم محتشد بسر الحياة الفطرية البسيطة.. يتشكل هنا وهناك.. في السماء والأرض, وباطن الأرض, وكل البطون.. كل الموجودات تواصل الغرس والنماء, كما تواصل الذبول والفناء.

عند الفرن محبات.. تعيد تثبيت الحطب الذي طيرته ريح الأمس. وقعت عيناها على خمس بيضات صغيرة عليها آثار دم.. حملت البيضات في كفيها.. شملتها بنظرات حنون كما اعتادت أن تفعل مع كل نبت جديد.. تأملتها.. استبعدت أن تكون بيضا لحمام أو يمام لابد أنها البشائر, وضعتها »البرابر « الصبية.

اختارت الدجاجات الصغيرة لنفسها هذا الركن الدافئ الهادئ ألهمتها الغزيزة أن تسعى إلى منطقة مأمونة ومستورة, بعيدا عن العيون والأقدام.

مع أنها ليست المرة الأولى إلَّا أن فرحة محبات كانت كبيرة.. فرحة تليق بإنتاج الدفعة الجديدة, ولكل مولود في البيت فرحة,

حتى لو كان كلبا.

حملت البيضات ومضت إلى زوجها, وقد أخفتها وراء ظهرها

قالت له: مبروك

وهو مشغول بحلاقة ذقنه قال: الله يبارك فيك.. علام?

قالت: حزَّر

فكر وتذكر وبحث. لم يكن ثمة شيئا جديد ا في حياته, ولم يكن هناك ما ينتظر أن يحدث.. التقطت نظراته وقفتها.. أدرك أن المفاجأة في يديها.. حاول من جديد.

قالت: غلب حمارك

قال: غلب

بسطت كفيها أمام عينيه

هتف متهلل الوجه: اللهم صلِّ على النبي.. إنها لم تكمل غير شهور قليلة.

– اد ُع لأمي.

– خمسة فقط

––نعمة

– الحمد الله

في صباح اليوم التالي حاولا أن يراقبا الدجاجات ليعرفا أيها باضت والتي عليها الدور.

خرج رشوان, وجلست محبات تراقب الديكة, لتتعرف على الديكة النشيطة التي »تكبِّس « الدجاجات, وتقوم بتحميسها لوضع البيض.

تذكرت أن أمها قالت لها يوما:

– إن الدجاجة تبيض حتى لو لم يلمسها ديك.. لكنه بيض لا يمكن أن يفقس كتاكيت مهما احتضنته أمه ونامت عليه شهورا.

تنهدت محبات وقالت:

– حكمتك يارب.

تابعت حركة الديكة واطمأنت إلى أن الجميع نشيطة وراغبة والدجاجات كذلك.. إنها تشكل معا مستعمرة من الخصوبة والحب. أخذت المساقي الفخار وغسلتها تحت الطلمبة جيدا وملأتها ماء جديدا وأسكنتها مواضع غير التي كانت فيها.

ألقت نظرات عاجلة على الديك الرومي والأرز والبط, ثم اتجهت إلى داخل الدار.

في اليوم الثاني ظهرت خمس بيضات, وفي اليوم الثالث عثرت على ست, ثم سبع, ومعها تتخلق الآمال والأمنيات الصغيرة.

في أعماق الزوجين وبينهما يدور الحوار ويتجدد.. يتحدثان عن اختلاف بيض اليوم عن بيض الأمس, وتغير الأحجام, ويتحدثان عن الطيور وتغير حركاتها والمشي وكمية الطعام, ومع كل جلسة شرعا يقترحان الأسماء لبعض الدجاجات حسب الملامح والعادات وطبيعة الحركة.. اقترح رشوان أسماء لبعضها هي لأشخاص يعرفهم , تتشابه ملامحهم وسلوكهم بصورة ما مع ملامح أو سلوك بعض الديكة أو الدجاج .

بعد أيام ظهر الاصفرار على وجوه بعض الدجاجات وعلى أعرافها ومناقيرها وتداخلت رؤوسها في أجسامها, وقصرت رقابها, وآثرت أن تركن إلى الظل, لم تعد تركض وراء الحب, وقد تمضي الدجاجة نحوه فتلتقط حبة أو حبتين, وقد تتمشى صوب

وعاء الماء فتمسه بمنقارها م سا, أو تغمسه دون أن تغترف إلا نقطتين أو ثلاثا.

– يا مصيبتي.. هي عين أم الواد شحتة, أو عين وداد, وممكن تكون عين أختي أمونة.

تأثر رشوان بالمنظر التعس وأرسل من يستدعي له صديقه رمزي الطبيب البيطري.

لم تكن بالنسبة لهما قيمة الدجاجات والديكة والبط والأوز والخروفين وكل ما يملكانه من طير وحيوان فيما تساويه من المال, وإنما بوصفها بمثابة الأبناء والأهل والأحباب والونس وحس البيت, وهي التسلية والفرحة.. ترتبط أيامها بحركة ونمو وتكاثر هذه المخلوقات البريئة الجميلة التي تشبه نقوشا رائعة على ثوب أبيض.

حتى الكلبة لم يسمحا لها بالخروج والغياب أحيانا, إلا لأنهما يعرفان أنها بحاجة إلى أن تلتقي بكلب الحاج مراد شيخ البلد .. راضيان عن اختيارها, فقد حالفها التوفيق, ولم تسقط على أي كلب كما تفعل الكلاب الطائشة.. إنه كلب قوي وشجاع, متنبه جدا لكل غريب ولكل رائحة ولكل صوت, وله مواقف تدل على أصالته ونبله, وهمه ليس على بطنه مثل بعض الطلاب .. لا يمانعان في أن تسلم الكلبة نفسها لكلب ابن أصول وعلى خلق, وإن لم يحصل على أي قدر من التعليم, ويقضي معظم أوقاته في الشارع. من أجل المحافظة على علاقتها بعشيقها, وحرص ا على احترامه لها خصصا لهما موعدين فقط في الأسبوع هما الاثنين والخميس, حتى يشتاق إليها, ولما وجده رشوان أمام البوابة عدة مرات يحوم

حول بيت الحبيبة, اضطر لطرده بعد أن تأكد من أن هذا اليوم ليس من اليومين المصرح بهما. وكان قد منع أن يتم اللقاء داخل بيته أو بالقرب منه حتى لا يراهما بقية الحيوانات والطيور.

وضعت الكلبة جراءها في آخر مرة في ركن من الفناء كانت محبات قد جهزته لها بعيدا عن الخروفين والديك الرومي.

فرح رشوان وزوجته بالجراء غاية الفرح وتابعا باهتمام ودهشة حركاتها وهي لا تزال فى حضن الأم ذات الأثداء الستة.. الجراء في أغلب الأحوال ستة.

راقباها وهي لا تزال قطعا من اللحم تتلو وتتوجه مغمضة العيون إلى الأثداء.. كل منها يعرف ثديه.. يرضع وينام, ثم يصحو ويتلو في اتجاه الثدي ليرضع وينام.

لما كبرت وانتشرت في الفناء المشمس, شاركت في الحركة الدائبة التي تعود الفناء أن يشهدها.. ساهمت الجراء في الأنس الجميل عدة أيام إلى أن بدأت تتجاوز حدودها في معاملة جيرانها الطيبين.. والجراء الصغيرة كانت تميل إلى المداعبة الثقيلة, ولعل الوراثة هي السبب.

عندئذ تبدأ عملية التخلص منها بتقديمها لكل من يطلب, والتوزيع حسب أسبقية الحجز, والأقربون هم الأولى بالكلاب.

حقن الطبيب جميع الدواجن.. ترك لهما كيسا به مسحوق أبيض. طلب أن توضع منه في الماء كل صباح عبوة ملعقة. وعدهما بالعودة بعد أيام, لكنه عندما عاد ووقف أمام البوابة الخشبية يطل على الساحة التي كانت دائًما عامرة وتموج بالحركة, لم تقع عينه إلا على ديك واحد كبير بشكل ملفت للنظر.

قطار سريع إلى المرض ظهر فجأة, تقافزت إليه الدجاجات رغما عنها..

توالى اصفرارها وذبولها وتوقفها عن تناول الغذاء, وعندما تشرع الشمس تدريجيا في الغروب, تؤوب الدجاجات إلى ركن هادئ حيث تواصل الهزال والوهن, حتى لا تجد مف ر ا من الرحيل عن جسد فقد كل ما يعينه على البقاء.

في الصباح تعثر عليها محبات جافة تماما كأنها لم تعرف الحياة يوم ا.. دمية من خشب وريش, سيئة الصنع, تخبط على صدرها ولا تملك إلا أن تلقي إلى الكلاب الضالة أربعا أو خمسا من أحبابها.

لطالما ربَّت دجاجات في البيت, ولم تهاجمها الكوليرا أو تصيبها عدو أو يمسها أي وباء مما يصيب الدجاج في كل بيوت القرية, لطالما كانت في معزل عن هذه المصائب; لأن بيتها أول بيت في القرية وقبلها وخلفها الحقول, يقع في المدخل البحري فلا يتلقى منه إلا الهواء النظيف, ولا تأخذ من القرية هواء مرَّبها.

راحت الأفراخ وراحت معها الحياة الشقية العابثة والمرح الجميل وأبقت – ويالللغرابة– ديكا واحدا يكبر ويكبر ويتضخم, وكأن الله أراد أن يخفف عنهما العذاب لفقد الأحباب فاستبقى هذا الديك العجيب الذي خرق قوانين النمو.

الديك يكبر كل يوم بفارق واضح عن اليوم السابق مع أن وجبته محدودة.

رأته محبات ينقر برصا على الحائط. يسقط على الأرض, يمزقه بمخالبه, يلتهمه في ثوان, ولم تره عندما طار فحط بمخالبه على فأر

وظل تحت المخالب يتلقى نقرات حادة من منقاره حتى انقطعت صلته بالحياة, ومضى الديك يمزقه في أناة, لكنها رأته وهو يصطاد سحلية, وحكت ذلك لرشوان, فرد عليها بأنه رأ العصافير تقف على ظهره فلا يمسها ويحط الحمام الغريب أمامه فلا يلاحقه, ويكتفي بالابتعاد في هدوء حتى يسمح له بالتقاط الحب.

دفع الدكتور رمزي البوابة بحرص وحذر, وكأنه يود ألاَّ ي ْش ُع َر به أحد, مسحت عيناه الفناء كله.. تمنى من كل قلبه أن تكون الدجاجات اختفت هنا أو هناك, واتفقت فيما بينها أن تجعلها له مفاجأة, وأن تكون قد شفيت جميعها بعد أن حقنها وتناولت الدواء الذي لابد وضعوه في المساقي.

ليته يراها الآن تخرج عليه بغتة من أحد الأركان لتقفز فوقه وتنقره نقرات المحبة, وتلتف حوله مرحبة بالذي كان سبيلها إلى الشفاء.. لا أثر.. مط شفتيه.

لم يقدر لها أن تعيش.

استدار الديك الكبير إليه. بقي في موضعه وقد عرف فيه شخص ا غير جدير بالطرد أو الهجوم. رفع رأسه لأعلى مستمتع ا بتاجه الأحمر المتألق وبدا واثقا أن ليس لأحد مثله, غدا طوله في ارتفاع السور.. لاحظ ذلك الطبيب.. همس في أعماقه.

قرابة المتر ونصف المتر.. إنه حي وليس تمثالا ً. ما حكايته؟!

لم أشهد في حياتي مثله.. لقد قرأنا عن ديوك كبيرة جدا في بعض البلاد وفي التاريخ.. لكن ذلك الديك غريب.. ظاهرة جديرة بالدراسة.. استمر يتأمله لحظات!

@ @6

هل كان ينظر إليها من النافذة. لقد تمثل لها وهو يحدق خلال الزجاج بينما كانت في الفراش إلى جوار زوجها.. المساء يسدل ستائره على الكون كله. الظلام يعم إلا ضوء ا خافت ا يبعث به قمر لا يزال في ليلته العاشرة.

هل يمكنه عوده الفارع من أن يبلغ نافذة غرفة نومها التي تطل على الفناء الخلفي للدار?

كان رشوان يغط في النوم, أما هي فقد ثنت ذراعها تحت رأسها وشردت تفكر في أشياء متفرقة.. حملها زورق الأرق من قاع بحار النوم العميقة إلى شواطئ اليقظة الملعونة.

أختها هانم يصر زوجها على أن يطلقها بحجة أنها لا تطيعه في شيء أبدا.. إذا قال الشرق قالت الغرب وإذا أراد الغرب أصرت على الشرق.. تعب معها الأهل لأنها تتدلل وتعاند في كل الأمور, لكن المسألة لا يتعين أن تصل إلى الطلاق. ما مصير الأولاد الأربعة.

–عيشي يابنت الحلال ومشي أمورك

–أبدا

على ثقة هي أنها لم تكن غافلة, أو غارقة في غيبوبة النوم عندما رأت منقاره وعرفه خارج النافذة, ومسحة من الضوء الفضي الباهت تسقط على صفحة وجهه اليسر , فتلمع عينه, لماذا كان يواصل محاولاته التحديق عبر الزجاج? هل كان يود أن يراها? يراها هي.. لم يفلح ولا شك لأنها في العتمة.. ساورها هاجس غريب ومجنون.. هل أيقظها الأرق لتراه وهو يحاول أن يراها?!

–كيف يمكن أن يظل هذا الديك ساهرا حتى منتصف الليل?

ولماذا يحاول أن ينظر خلال النافذة حتى ليصطدم منقاره

بالزجاج؟ هل تراه يود أن يطمئن علينا؟ أو ربما يريد رشوان في أمر ما؟

ظلت مفتحة العينين تعبث برأسها الأفكار هنا وهناك.. تتمثل لها فروع الشجر وقد سقطت عليها أنفاس القمر, وداعبتها النسمات فمالت الغصون السكرانة بالوجد الليلي الفاتن.

في الصباح خرج رشوان إلى الجمعية الزراعية.. بدأت محبات برنامجها اليومي داخل شقتها.. فتحت نافذة الصالون.. وقعت عيناها على الديك.. كان يرنو في حنان إلى العصافير وهي تتقافز فوق الأغصان وعلى الأرض وأطراف الأسطح.. تبدو في عينيه الدهشة إذ يراها تزقزق وتتلاثم وتفر في مرح وسرور وتتشاجر في ود لذيذ, وهو يقف وحيد ا بلا تغريد ولا ُقبل, ولا حتى رفقاء يبادلونه المرح. طال وقوفه وهي ترقبه, وقد بدت ملامحه في عينيها كملامح قط.. تذكرت أنها منذ أيام طالعت في وجهه ملامح صقر, قبلها رأت على محياه ملامح حمامة هائمة.. لكنها في الأغلب تر فى وجهه ملامح الأطفال.. وعندما ينظر إليها.. تغزوها نظرات الحنان فتخطف روحها لحظات وتنفك العر التي تربطها بما حولها.

نفضت عنها الكوابيس واندفعت تنفض الأثاث, وتكنس البلاط وتمسحه.. غيرت الملاءات ومضت إلى المطبخ فغسلت الأواني والأرضية.. حملت الراديو الصغير.. كانت أغنية على وشك أن تبدأ.. يسبقها تصفيق ُموقَّع بالأكف.. وضعت الراديو على شباك الصالون المطل على الفناء.

غسلت القلل وملأتها.. رصتها في الصينية النحاس. حطتها على الشباك في سكة النسمة.. روَّت شفاهها بمياه الورد.. دعكت الأغطية

النحاسية بتراب المحمي. تألق نحاسها وبدا ذهبا يلمع.. وضعتها كالتيجان على رؤوس القلل.. تراجعت لتلقي نظرة أخيرة على طلعة القلل ثم ابتعدت مسرورة, تصاحب الموسيقى خطواتها الراقصة.

خرجت إلى الفناء.. هرست كمية من الخبز المبتل.. وضعته للأوز والبط.. حطت للخروفين حفنتين من الذرة وحفنتين من الفول مع الردة والتبن.. سحبت المكنسة الليف وأخذت تكنس الأرض التي حملت إليها الريح أوراق الشجر الجافة.. لمحت أبو عرف يتراقص برصانة على أنغام الموسيقى.. تأملته لحظات سعيدة ومندهشة..

اعتبرت رؤيته اليوم بهذه الحالة اكتشاف ا جديدا ورائعا.. هل تراه يحس بالموسيقى إلى هذه الدرجة? لم تر حيوانا رقص على الموسيقى إلا الحصان.. هكذا كان جواد أبيها.. لكنها لم تر ديكا مثل هذا الديك..

ما أسعدها بما تملك!

واصلت محبات الكنس, وكل جسمها آذان تحس وتسمع وتردد الأغنية مع عبدالحليم الذي كان يغني.

قولوا له.. قولوا له.. قولوا له الحقيقة

بحبه, بحبه.. من أول دقيقة

قولوا له بحبه.. ومتوهني حبه

في بحوره الغريقة

أبو عيون جريئة

وضعت الصفيحة في حوض الطلمبة وأمسكت يدها. رفعتها في قوة وخفضتها. انطلق الماء يجري من فوهة الطلمبة كنهر صغير يتفجر بحماس ويسقط في الصفيحة.. ترفع اليد وتخفضها, والنهر يتلو رشيقا وشفافا .. ينثر رذاذه في اندفاعه من الفوهة المعدنية.. تأملت

الماء الفرحان.. ينطلق كموسيقى الأمل.. اقتحمها الحلم من جديد..

الحلم الذي رأته.. ليلة الأمس.

همست: خيرا.. اللهم اجعله خيرا.

استشعرت الظمأ بغتة, جف حلقها.. أسرعت ترفع القلل واحدة

بعد الأخر .. لم تسقط منها نقطة واحدة.. الزير فارغ.. اندفعت إلى

الصفيحة المغطاة بالمطبخ.. فارغة.. إلى الفناء خرجت مسرعة.. مضت

توا إلى الطلمبة.. لم تكن هناك, استدارت عازمة على اللجوء إلى

الجيران.. تلهث بشدة.. الظمأ يتصاعد ويتشبث بروحها وقلبها.. في

وسط الفناء ألفت نافورة, يفور ماؤها, ويتعلق على رذاذه المرح فتات

من ضوء الشمس.. الماء يتقلب ويرقص.. يبرق وميضه.. تنهدت

محبات فرحا.. تقدمت منه.. لكن سورا من الأعمدة الحديدية مدببة

الرؤوس انتصبت أمامها.. دارت حول السور فاتحة فاها لتلتقط الرذاذ

المتناثر, بينما جسدها يتقافز فوق أرض جرداء ساخنة.. تلهبها اللهفة

والانتظار.

من حلمها استعادتها الموسيقى امتلاء الصفيحة.. تحولت إلى

المساقي.. تنحني على كل واحدة تغسلها وتنقلها من موضع بللته

الشاربة إلى آخر جاف.

انحنى الديك فوقها.. يعانقها من الخلف.. يحيط جسدها بجناحيه

حتى اختفت تمام ا بين أحضانه.. سقط قلبها في قدميها.. أوشكت أن

تفقد وعيها.. الدنيا بها دارت ولفت, لكنها ظلت ساكنة ومتوترة

والقلب بعنف يدق ويدق, هي بكل عيونها تحدق في اللاشيء.. تحاول

أن تستوعب حقيقة ما يحدث.

عدلت نفسها واستقامت .. لم تتحرك.. ظل يحيطها بجناحيه.

ناعما كان ريشه, ودافئا كان صدره, وثمة حنان آسر يتسلل إليها..
لم يكن ثمة ما يزعج في عناقه لولا غرابته, ولولا أن السور المحيط بالدار لا يتجاوز المتر ونصف المتر.. مسحت الأفق كله بنظراتها..
حمدت الله أن أحدا لم يرها.. كان الفضاء اللئيم يحنو عليها ويتواطأ حتى لا يراهما مخلوق ولو كان يقبع خلف خصاص النوافذ.
برق في وعيها هاجس شيطاني غريب, ماذا لو رأ أحد ديكها يفعل معها هذا?.. ألم يكن الأجدر بها أن تخشى وقوع عين عليها وهي في هذا الوضع.
بيديها حاولت أن تبعد جناحيه, تمسَّك بها, ولم يسمح لها بالتغلب عليه.. استشعر أنها تبذل جهد ا مضني ا كي تبعده عنها.. لم يرد أن يفجر غضبها.. خفف تدريج ي ا حصار جناحيه, دارت وواجهته وهي لا تزال في مد جناحيه. ضمهما عليها.. من جديد اختفت بداخله وحط رأسه فوق رأسها, وما عاد لها بالدار من أثر.
كانت محبات تقريب ا ولعدة مرات قد أوشكت أن تضيع في غيبوبة من هول الدهشة, بل من هول الدهشات.. عالم متواصل من الدهشة والجنون يتقلب فيها وتتقلب فيه. بروحها وقلبها وجسدها وعقلها وحواسها.. الدهشة تتولد واحدة بعد الأخر فوق فرن الأسئلة الساخن البارد, الحار الرطب. الطري الصلب. المعتم المضيء.. الواقف الجاري. النائم الحالم. الحي الميت. الضائع الموجود.. وليس ككل وجود وأي وجود.
مبهورة.. مسحورة.. خائفة.. مضطربة.. رافضة.. راضية.. غاضبة.. مبتهجة.. كانت وتكون وستكون.. لكنها في كل الأحوال مستسلمة لما يجري, ولم يكن ثمة خيا ٌر آخر.. في نظرها.

أخيرا.. شرعت بعض الأفكار المضطربة تداخلها وهي جنينة داخل هذا الكيان الريشي.. كانت تدرك أن حجمه كبير بشكل غير عادي, لكنها لم تتصور أنها يمكن أن تختفي فيه.. إنها طويلة وممتلئة الصدر والردفين كما أنها عريضة الكتفين.. الآن فقط يمكنها أن تتأكد أن وقوفه بالليل تحت نافذة غرفة النوم كان لأجلها هي.. الآن فقط يمكنها أن تجد التفسير المحتمل لمنظره وهو يبحث عنها في الليلة الماضية.. مؤكد كان يبحث عنها.. وليس من بأس أن يبحث عنها, فالطيور تعشق أصحابها, أما أن يعانقها فلم تتصور ذلك البتة.. كيف يمكن لديك أن يعانقها على هذه الصورة؟ وهل يعرف معنى العناق؟ كيف يعرفه ولم يتدرب عليه, ولم يشهد أحد ا يفعل ذلك لا من بني جنسه ولا من بني جنسها ؟

– هو لم يرني مع رشوان في أي وضع..

لاذت قليلا بالصمت الحائر ثم تساءلت: هل يجد لذة في ذلك العناق؟ وإذا كان يجد لذته مع أنثى من البشر فكيف تناهى إليه ذلك؟ كيف نبتت في أعماقه هذه الفكرة, ولماذا لم يجرب مع الدجاجات أو مع الأوز أو البط؟!

إنها الآن مدفونة فيه, تنام في سرير صدره الوثير, وتتقلب على نبض قلبه الدافئ, إنها في عالم آخر وليس غيرها في عالمها.. قد نجد قط ا في حضن كلبة, أو كلبة في حضن ذئب, وقد يحكي لنا البعض عن شبل أسد في حضن نمر أو بين أحضان فيل, وقد نر نعامة في حضن زرافة أو دجاجة.. أوزة.. بطة في حضن إنسان.. أو.. أو, لكننا أبد ا لم نر بشر ا في حضن حيوان. والأهم أن ذلك لم يحدث مطلقا.. امرأة في حضن ديك.. يحتويها تمام ا حتى تختفي ولا يظهر منها أصبع أو شعرة

من رأس.

كان لابد أن تتساءل عن مد شعورها بلذة ما.. حاولت أن تكثف وعيها ولا وعيها وتفتش في أعماقها بدن ي ا وعصب ي ا عن إمكانية استشعارها لذة ما.. أغمضت عينيها واستجمعت كل بدنها.. ضغطته وكورته.. غدا كرة من الأعصاب الدقيقة المرهفة, استقطبت إليها كل حواسها النفسية والغريزية وركزت انتباهها لاستقبال أي إشارة عن تحقيق أي متعة.

أيقنت أنها لا تشعر بلذة, لكنها تحس براحة غريبة . إنها تود لو تبقى هنا إلى الأبد.. في روحها تنبت لحظات من الصفاء الخرافي وهي داخل عش أحضانه. وهو صامت دافئ, ينبض بدنه ويردد ما يشبه الهمهمة.. تنفذ في بدنها فتردد أصداؤها لغة بليغة يعيها القلب ويشربها.

خفف عنها حصار جناحيه.. بقيت بين أحضانه مغمضة العينين مغش ي ا عليها, أو مخدرة بعد أن سبحت طويلا في بحار الدهشة.

ضم عليها الجناحين وتنهد سعيد ا لأنها لم تهرب عندما رفع عنها الجناحين لحظات.. جرب أن يغمض عليها عينيه حتى يكتمل الاندماج والتوحد.. ذابا مع ا في كيان واحد صامت وساكن.

هل كانا يفكران في شيء واحد؟ هل كان ياتر إحساس واحد يجتاح روحيهما؟ هل كان الديك في الصومعة التي تشكلت من الريش الملون في ركن الفناء يحاول أن يحيلها إلى دجاجة, لتنسجم مع جنسه؟ هل كانت هي التي راضية سلَّمت بدنها لتديُّكه ؟ لعلها تترك عالم البشر, وتغدو كائن ًا ملائمًا له, يتحقق لها معه ما لم يتحقق مع بني جنسها.

لماذا لم يتمهلا لتأمل اختلاف الطبيعة؟.. أم أن الديك قبلها لم يؤمن بذلك, ولم يعتد بأي فواصل وتقسيمات. لابد أنه احتسبها وهمية, وعدَّها خرافة من الخرافات, فقفز فوق أسوارها بجسارة, مستجيبا لنداء الغريزة.

كيف أدرك هذا الطائر المنفلت من أسر القالب أن الغريزة لغة عالمية تفهمها جميع الكائنات التي مستها إرادة الله؟! كيف تصورها على أنها موسيقى تتردد بلمستها الإيقاعية على أوتار الروح فتطرب لها الأبدان وتلتقي, تتعانق.. تتلاثم.. ترتبط.. كيف؟ لا يهم ذلك الكيف.

لغة عالمية تدركها أعماق العصفور, كما تدركها روح الفيل وتهتز لها أعصاب الجياد, وتهفو لها خلايا الكلاب.. وترسمها الأسماك موجا صغير ا ورشيق ا في البحار والأنهار والترع.. إنها اللغة نفسها التي يرددها النمل والنحل والجرذان والأرانب والأسود والنمور والغزلان والحيتان والنسور.. هل تعتبر محبات شريكة في الثورة أم مجرد رفيقة وصاحبة؟ هل خطر ببال أحدهما فكرة من هذه الأفكار, أو حلم من هذه الأحلام؟!

أين اليقظة وأين الحلم؟ أين الأسطورة وأين الرؤية؟ أين الوهم وأين الحقيقة؟ اختلط كل شيء في لحظة ممتدة من زمن غائب وسكون حاضر, وقد أتيح للفطرة أن تنتصر على كل شيء وتقدمت في غيبة كل عقل أو وعي أو َت َب صُّر . تمكنت من أن تحكم العالم بلمسات رقيقة من الحنان والعفوية والمتعة التي تتوزع مصادرها على خلايا الأبدان والأرواح والأعصاب والحواس.. ذابت الموجودات في فيض العشق الطبيعي المحموم.

ذوبي أيتها الأرواح.. ذوبي وتلاشي, واتحدي يابنيات الطبيعة,
وتدريج ي ا عودي إلى رحم الأم الخالدة.
*** * ***
لم يشعر الديك بدخول رشوان ووقوفه لحظة وسط الفناء وتطلعه إلى المكان كله. ولم ينتبه إليه حتى وهو يمضي إلى داخل البيت.. بعد لحظات أفاق الديك على صوت رشوان ينادي محبات, كان الراديو مفتوح ا على نشرة الأخبار.
لم تسمعه محبات, فضل أبو عرف ألاَّيتسبب في مشاكل عائلية. فتح بوابة جناحيه على مصراعيها, ورفع غطاءه عمن تسكن قلبه.. سمعت محبات نداء زوجها. خامرها شعور مبهم أنها تعرف صاحب هذا الصوت. انطلقت إليه في نصف وعي.. كادت تقع على عتبة البيت..
أسكت رشوان الراديو, حمله إلى الداخل وأغلق النافذة.
تنفست بعمق قبل أن تخطو إلى الردهة.. ضربت بفكرها تبحث عن الكذب المزوق قبل أن تلتقي برشوان, لابد أنه سيسألها أين كانت.
قالت له وهي تواصل تعثرها واضطرابها مكبلة ببقايا خيوط الدهشة دون أن تكتشف أنه لم يسألها..
–لقد كنت عند الطلمبة أطعم الخروفين.
ما إن أتيحت لها الفرص المقبولة والمبررة للتخلص من رشوان بالتوجه إلى المطبخ, حتى عادت تسأل نفسها عن هذا الديك المجنون, وعما جر منه.. وعن أملها ألا يكون رشوان قد لمحها على أي صورة مخلة.
مطلوب هدوء شديد جدا وتركيز ذهني تام, والتأكد أولاأن ما حدث كان في الواقع وليس في حلم.. واقع حقيقي وملموس;

إذ لا يزال العقل لا يصدق, عندما عثرت عليه أخيرا وأعادت على صفحته ما حدث, أو ما اعتقدت أنه حدث.

كانت بداية الطريق صفعة على الوجه.. رأت أن صفعة واحدة غير كافية, صفعة أخر وقرصة في الفخذ.

تناولت الغداء مع زوجها وشاركته الفراش, كانت تستشعر رغبة في مواقعته, ومع ذلك ظلت تفكر في الديك وانتهت إلى أنه – كما كانت تسمع من حكايات الأجداد والأقدمين – يمكن أن يكون رجلا سخطته إحد الساحرات.

استسلمت للنوم عريانة بجانب زوجها.. لم تستطع أن تمد يديها إلى ملابسها الملقاة على الأرض.. واكتفت بفرش ملاءة فوق البدن المخدر.. أفاقت على أنين ضلفة دولاب الملابس. كان زوجها يرتدي الجلباب الصوفي والعباءة.. سألته عن سر ذلك.

قال: لقد جاء الآن خبر عن وفاة الحاجة نجية أخت زوجة العمدة. تركت لك مياه ساخنة في الصفيحة..

لم تستطع النهوض ولم تتحمس له.. خرج رشوان وأغمضت محبات عينيها تستمرئ حالة من الخدر اللذيذ.

عندما فتحتهما فجأة بعد لحظات أو سنوات.. كان الديك فوقها.

دفعته عدة مرات, وأعماقها المفزعة تسأل دون مجيب.. كيف دخل عليها؟.. هل ترك رشوان الباب؟ كيف تجاسر.. كيف صعد إليها؟ لماذا به لم تحس.. غريب.. كل شيء غريب.. بهدوء شديد أزاح الملاءة بهدوء شديد حط على بطنها.. كانت في غمرة الدهشة حتى إنها لم تستقطب كل قواها لإلقائه بعيد ا أو لطمه على وجهه, أو حتى نتف ريشه.. كانت مشغولة باكتشاف التجربة.. طبيعتها.. مذاقها..

تأثيرها.. بدايتها ونهايتها.

ما الذي كبلها على هذا النحو المشبوه؟.. ما الذي حرضها على هذا النزق؟ ما الذي سلبها الحماس للمقاومة؟.. هل اقتنعت بإمكانية اتحاد الكائنات الحية؟.. ليس بإمكان فلاحة بسيطة أن تفكر في ذلك, أو على الأقل من النادر أن تشارك في ثورة على هذا المستو .

كيف في يسر نفذ إليها وتسلل إلى عالمها الخبيء؟.. ما الذي دعاها للاستسلام حتى تعبث بين روابيها والضلوع أدواته الذكرية؟ كيف ارتضت للديك أن يستبيح حقولها المستظلة بنخيل الشرف؟

تألق في مقلتيها وهج الرعب تخالطه أطفال الدموع.. ها هو يمسها ذلك الديك الساحر, تتفجر في روحها ينابيع الدهشة المستحيلة.. فتفزع وتضطرب أوتار عقلها الراسية, تفككت وتداعت فإذا بها فيه, وإذا هو فيها. يكتب اسمه على قيعان قلبها, وينادي على نفسه في سراديب بدنها التي لم يكن لها من قبل أثر في الخرائط.

@ @7

أصر العمدة على دفن المتوفاة, وعدم إبقائها حتى ظهر اليوم التالي كانت زوجته تود لو بقي الجثمان في انتظار وصول الغائبين.. هاجمته الهواجس رعب ا من المشاكل الكثيرة التي تتربص به في الغد.. طلبه رئيس مباحث المركز ليسأل عن الجثة التي وجدت منذ أيام على حدود قريته واعتبرها العمدة تابعة لقرية الرملة المجاورة, ولم يحقق في ظروف الوفاة ثم ظهرت شكاو تبعث الريبة في طبيعة الوفاة.. وحتى الآن لم ينته من مشكلة الأرض المتنازع عليها مع أخيه.. وغد ا جلسة الحكم, وعليه في الغد أيض ا, أن ينتهز آخر فرصة ليعيد قيد ابنه في الثانوية بعد أن قررت المدرسة فصله لطول غيابه.

همس الخاطر في روع العمدة.

– غد مشحون ولعين.. وحرمنا المصمون تريدني أن أنتظر حتى أدفن أختها.. نسوان لا تحس ولا تفهم.. هن في عالم وأنت في عالم.

أزعجه بكاؤها المتواصل.

–كفاية يا حاجة.

من بين نشيجها ودموعها قالت:

–لو كان أخوك هو الذي مات لأبقيته في البيت واتصلت بكل معارفك من أسوان إلى الإسكندرية.

–يا ولية حرام عليكي.

فكر في ضم آخرين إلى صفه, قال لأختها الثانية:

– تكلمي يا حاجة فريدة.. أن ِت تعرفين الأصول.

وجدها تبكي في صمت دون أن تعيره التفاتا, وربما لم تسمعه..

استفز زوج المتوفاة.. كان لابد أن يجد من يحارب زوجته معه.. وحده ربما يخسر المعركة.

–ليس هذا وقت البكاء يا شيخ إبراهيم.. طول عمرك رجل تعرف ربنا.. فهمها إن النبي أوصانا بسرعة دفن الميت.. ألم يقل إكرام الميت دفنه.. فهمها.. أنت أعلم مني.

تبادل الجميع كلمات قليلة, وتبرع البعض بعبارات مقطوعة الأنفاس, لا تحل ولا تربط.. ولا تشفي غليل العمدة.

أخيرا وجد الحل الذي يمكن أن يحسم الأمور وينهي المشكلة.

قال – لك على يا سيدتي, أن أقيم لها سرادق ا كبير ا يليق بها .

عندئذ جفت دموعها أو كادت.

قال رشوان في سره:

– سرادق يليق بك يا حضرة العمدة وتبدو فيه أمام الناس وأنت بين الكبراء يعانقونك ويواسونك بحرارة.

لم يكن رشوان رغم متابعته للحوار الدائر يرفع عينيه عن الشيخ إبراهيم.. تركته زوجته مخلفة تسعة أبناء.. كان رشوان طوال الوقت يفكر فيها, إلى أن وقع عليه نظر العمدة.. قال له:

–سمعنا أن لديك ديكا عجيب ا.. أنت مسعد يا رشوان.. ربنا مريحك من العيال, وعندك مالا يوجد عند أحد.

همس رشوان:

–الحمد لله.

–أود أن أر الديك.. ابعث به إلي.

–شرفنا بحضورك وأنت تراه.

دفنت المتوفاة ورشوان ظل يسأل نفسه سؤالامتكرر ا

–ماذا سيفعل الشيخ إبراهيم وحده في هذه المصيبة?

في الوقت نفسه كانت محبات تؤكد لنفسها أنه بشر, ولماذا لا يكون كذلك والسحر موجود والحسد موجود.. الملائكة موجودة والجنيات في البحر موجودة وفي البر أيضا.

كان لابد أن تواصل في السر التأكد من هذه المسألة, خاصة أن العلاقة تصاعدت وتوطدت وترتبت وانتظمت, وأصبح الديك له حقوق تفوق حقوق رشوان.. وتدريج ي ا لم تعد تفكر في السبب الذي لا يجعله يؤذن, لم يعد الأذان بذي أهمية.. لقد آمنت بأنه لابد كان في الأصل إنسانا.

بعد أن جلست قالت له:

–لابد أنك تعلم يا شيخ برهام أن لدينا ديك ا كبير ا.

–أعلم.

–أشعر أنه ليس ككل الديوك, فهو كبير ج □ د ا في حجم الرجل

الضخم.

ÏB ª!$#—ÏB Ï™!$yϑ¡¡9$# z— uŠômr'sù &™!$¨B$ – بسم الله الرحمن الرحيم
® tAt“Pr& !$tBuρ

ÏB $pκ□Ïù £]t/uρ— à2⁄ËÉx≈tƒhÌ□9$# É#ƒÎ□óÇs?uρ 7π–/!#yŠ eÈ
/pκÌEöθtB y‰÷èt/ uÚö‘F{$# ÏµÎ$

t/ Ì□¤,|]÷⌋tβθè=É)÷ètƒ 5Θöθs)jÏ9 ;M≈tƒUψ ÇÚö‘F{$#uρ Ï™!$yϑ¡¡9$# t 〉
ßϑø9$# É>$ys¡¡9$#uρ¡

صدق الله العظيم.

–لكنه لا يؤذن.

–حكمته.

–أنا أظن.. مجرد ظن.

–وبعض الظن إثم.

توجست محبات من عبارة الشيخ, لكنها استأنفت:

–يهيأ لي أنه بني آدم مسخوط. ما رأيك?

–ما معنى مسخوط?

لاح عليها الاضطراب, مضت تبحث عن إجابة.

– كانت أهالينا تقول إن بعض الناس يملكون القدرة على السحر,

والسحر ورد في القرآن.. والسحرة يستطيعون أن يغيروا شكل

حيوان إلى صورة إنسان أو العكس.

– أستغفر الله العظيم.. عدد المجانين في ازدياد مطرد.

–أفتني يا شيخ برهام.

–كلامك معناه أن هناك غير الله من يخلقون ويغيرون فيما خلق الله

أي إن الله له شريك ومنافس ومثيل.

– أستغفر الله العظيم.. لم أقصد هذا أبد ا.

–إذن ماذا تقصدين؟

تمتمت:

–يادي المصيبة.. يبدو أنني سأسبب مشكلة.

–ماذا تقصدين يا امرأة رشوان؟

–أنا فقط مندهشة.

–لا تندهشي أبدا واذكري الله.. لأنه لا خالق غيره, حتى الإنسان

إذا خلق شيئا, فإنما يكون تحت عين الله وبأمره.

–وديكنا يا سيدنا.

–ما به؟

–كبير جدا.

–فضل من الله.

–ولا يؤذن.

–ألا تسمعون أذان الفجر في المسجد؟

–أقصد لا يصيح.

–هل ينقصنا صياحه؟!

–..

–هل يؤذيكم؟

–لا

–لماذا إذن نبحث عن القلق؟.. دعوا الخلق للخالق.

–كنت أحسبه مسخوطا حسب قول ناس زمان.

–ألم يخلق الله طفلا برأسين, وثاني ا بستة أصابع, ألم نسمع عن سيدة أنجبت ستة, وسمعنا عن ذكر أصبح أنثى وأنثى انقلبت ذكرا??

معجزات الخالق لا تنتهي ولا تقتصر على الأنبياء.

–فهل أطمئن?

–لا تتحقق الطمأنينة إلا إذا فوضنا الأمر لله.

–شكرا يا سيدنا.

هل أفادتها بشيء زيارتها للشيخ?! مضت تفكر في كلامه.. إذا كان لها من فائدة فهي أن تنزع من قلبها الحيرة حول ما إذا كان ديك ا حقيق ي ا أو إنسان ا مسخوط ا.. المهم أنه كائن جميل يؤنس وحدتهما ويملأ عليهما البيت.. ويسليها في غياب رشوان ولها فيه مآرب أخر .

لقد عرضت عليها أمها أن ترسل إليها قفص ا من الدجاج بديلا عن المفقود, لكنها طلبت منها التمهل. لا تعرف ما هو السر وراء ردها هذا.. ما الذي كان يدور في أعماقها وعقلها الباطن?

من بعيد رأت دارها وقد علاها السور, ُبني بناء حديث ا جميلا وفي وسطه بوابة حديد سوداء يغطيها من الداخل زجاج سميك يمنع رؤية َم ْن بالداخل.

همست محبات: كان قدم السعد علينا.

ما إن فتحت البوابة حتى طالعها الملك, أصابها الفزع في البداية وتفلت في عبِّ ها, لكنها ضحكت ولامت نفسها أن بدرت عنها مشاعر الفزع لرؤيته.

وقفت تنظر إليه وهو إليها ينظر.. قالت له:

– هل أكلت?

هز رأسه هزتين من أعلى إلى أسفل.

فغرت فاها دهشة وسعادة لأنها دون أن تقصد سألته.. وهي لم تسأله من قبل.. لماذا سألته؟ سبحان الله, لقد أنطقها وألهمها أن تسأل من لا ُيسأل, فإذا به يجيبها بهزة من رأسه.

–هل تسمعني؟

أومأ بالإيجاب.

صرخت وقفزت وصفقت.. ومضت ترقص:

– أنا كلامي صح.. أنا عندي حق.. أنا كلامي صح.. أنا عندي حق.

عادت تسأله:

–هل تفهم كلامي؟

أومأ بالإيجاب.

من جديد قفزت ورقصت وصفقت, واحمر وجهها فرحا ولمعت عيناها بالسعادة التي فجرتها روعة الاكتشاف المذهل.

–إنه إنسان مسخوط.. كلامي صحيح وكلامك يا شيخ برهام خطأ.. خطأ كلامكم .. كلكم خطأ.. أنا سعيدة لأن ظني طلع في محله, وسعيدة جدا لأن عندي إنسان مسخوط, آمره فيطيع.

هدأت لحظات بينما ظلت عيناها تبرقان بوميض الدهشة والفرح اللانهائي.

في هدوء همست:

– يبدو أنني عبيطة.. كيف يعرفون أنه مسخوط؟ أنا أقول ذلك لأني اكتشفته, وهل ما فعله معي هذا العفريت كان فعل ديك؟

من أنكروا أنه مسخوط لم يبلغهم ما فعل.

لم تحب رشوان. قال لها أبوها – وكان حيا – تزوجيه فتزوجته..

ابن حلال, لكنه لا يحيل النطفة – بأمر الله – إلى ولد .. أي ولد, وعشقها للولد هو الجنون.

تصورت – أكيد مجرد تصور – أنها تر في عيون الديك ولد ا قادم ا يشبه وردة لها أجنحة تطير خارجة من عروش قلبه متجهة مباشرة إلى بطنها.. رأت الوردة ذات الجناحين تصطدم بقاع بطنها وترف أصداؤها في الخلاء الموحش.

تذكرت أنها رأت الديك في المنام منذ عام, وكان رجلا فارعا رفيع العود.. رأسه على شكل ديك.. قال لها:

–جمالك زيادة وأنا قلبي اتفتن.

هو اختفى وهي استيقظت من النوم مشمولة بالرعب.

@ @8

مات رشوان فجأة.. سقط من طوله, لم تعرف لماذا مات؟ أمن شدة الفرح أم من هول الحزن ؟ كانا يقفان في حجرة النوم.. قالت له

– عندي لك خبر سوف يسعدك.. خبر انتظرناه منذ تزوجنا..

تحول بنظره إليها.. توقف عن التنفس.. رغب في أن يعمق الصمت. صمت تام يشرنق الكون كله. استبعد أن يكون الخبر ما تمناه سنوات.. هل أذن بالقدوم.. هل يمكن أن تكون قد حملت؟ هل شاء الله لي أخيرا أن أنجب؟

تماسك.. تنهد.. قال: ما الخبر؟

– َحزَّر.

–غلب حماري

ضحكت وضحك رغًما عنه: ليس بسرعة هكذا يغلب حمارك..

َحزَّر.

–صحيح.. غلب حماري.

–أنا على أية حال لا أريد أن أحيرك.. أنا.. حامل.

اتسعت عيناه بالتدريج, فغر فاه بالتدريج.. اصفر لونه بالتدريج.

وسرعان ما تهاو دون كلمة.. صرخت:

– رشوان

أمسكت يده.. لا حركة.. لا صوت.. لا نبض.. صرخت..

َو ْل َو َل ْت .. جاء الناس والأهل والطبيب.

–البقية في حياتكم.

–مستحيل.

عرف أهله وأهلها أنه مات من شدة الفرح.. مسكين لم يحتمل الخبر.. حكت لهم ما حدث بالحرف.. ماذا كان عليها أن تفعل؟ لم تصدق أذنيها عندما بلغها أن أخاه بعد عدة أيام مضى يشيع أنه يشك في الحمل وأن الجنين الذي في بطنها ليس ولد أخيه.. وكيف يكون ولده والأطباء أكدوا له انعدام الأمل.

في إحد الليالي طرق الباب عليها إخوة رشوان الذكور والإناث مدججين بال ِع ِصيِّ والغضب.. فتحت لهم محبات.. دفعوها جميعا وانقضوا عليها يوسعونها ضرً ب ا وركلا وجذب ا لشعرها وعضا لكل أطراف بدنها, وهي لا تستطيع أن تصرخ لأن فوقية كانت قد بدأت مهمتها مبكرا وهي كتم أنفاسها, في حين قبضت أختها الثانية على الساقين. وتفرغ الآخرون للعمليات الفنية..

حاولت فوقية العانس أن تستبدل يدا بيد.. تمكنت محبات من تجهيز أسنانها واستقبلت بها اليد الجديدة, تخلت فوقية عن الفم ثانية لتتألم وتسبها. كان ذلك كافيا لمحبات كي تصرخ بكل كيانها..

استيقظت من النوم فزعة مستعيذة بالله من الشيطان الرجيم ومستعيذة من هذا الكابوس الذي لم تر مثله في منامها من قبل. طيلة النهار بقيت تفكر في الكابوس ومعانيه.. فتحت بابا في يقظتها للهواجس. شرعت تطرح الأفكار التي تستطيع أن تقنع بها رشوان إذا حدث – لا قدر الله – حمل من هذا الديك الذي ضاجعها مرات.

لا تستطيع اليوم أن تقول: وهل من المعقول أن تحمل من ديك؟ كل شيء أصبح صالح ًا للتصديق.. لا شيء غريب كما قال الشيخ برهام. كانت الدهشة فقط أيام زمان, وانتهى عصر الدهشة. كانت السماء إذا أمطرت والشمس مشرقة نظل لسنين ندهش.. القطار عند ظهوره أثار دهشتنا, والسينما والعمليات الجراحية والراديو.. كل ذلك كان ضرً ب ا من المستحيلات.. هي مازالت تثق أن الديك بني آدم مسخوط.. أحد المقتدرين في السحر استخدم سحره في الانتقام من هذا الشاب, ربما تلبية لعاشقة أو زوج أو زوجة. ماذا يحدث إذن لو برزت البطن وعلت بما تحمل؟ لابد من حل, ذاهلة مضت تفكر, باحثة عن عمامة يلبسها رشوان راضي ا.. لا أريد مشاكل أو خلافات ولا أريد فضيحة, كله إلا الفضيحة .. البلدة صغيرة, ولن يكون هناك مخلوق إلا ويعرف بما جر , حتى الذين لم يولدوا ستنتقل إليهم القصص والأخبار, وأنا لا يد لي في ذلك.. مكتوب ومقدر.

ركبت أرجوحة الأفكار. تطرح واحدة وسرعان ما تنسخها, تقترح وتكتشف عيوبا فتستنكر وترفض, يهديها العقل إلى فكرة جديدة تفرح بها, ولما تعثر فيها على ثقوب تنزعها من رأسها بلا ندم,

إلى أن وجدتها ورضيت عنها وباتت الليل تزين فيها وتعدلها.

في الصباح انطلقت إلى »طنط الجزيرة «. بلدة صغيرة تبعد قرابة ساعة بالسيارة الأجرة..عليها أن تركب إليها سيارتين وزورق.. هناك رجل ذو صيت معروف قيل لها إنه متخصص فقط في فك عقدة الإنجاب..

معها حملت– بناء على نصيحة العالمين – منديلا من مناديل زوجها.

جلست أمام الرجل تجيب على أسئلته الخاصة ج دا ج د ا كما سألها عن ذهابه للأطباء, وما قالوه له ولماذا لم يحضر بنفسه.. أحضر الريشة والمحبرة ومضى يكتب على ورقة صفراء, ولما انتهى من الكتابة رسم أشكالامبهمة ودوائر فيها نقاط وعلى الأجناب سهاما, وفي الأركان رسوما أخر صغيرة لا شكل لها, ثم أشعل نار ا صغيرة غير التي في الموقد أمامه.. وضع فيها المنديل, وبعد أن احترق نثر عليها قطرات الماء.. فانبثق عنها دخان بسط في طريقه الورقة.. تعالى الدخان من الأغصان التي لم يكتمل حرقها واصطدم بالورقة.. قلب الورقة ليشرب وجهها الآخر من الدخان.. لحظات قليلة ثم أخرج من تحت مقعدته حجابا سقاه من الدخان, دعا محبات لتمسك الحجاب فوق الدخان طالبا منها ألاَّتتنفس.. طو الورقة الصفراء عدة طيات ثم أخذ منها الحجاب ودار حوله بأصابعه النحيلة حتى عثر على فتحة.. دس فيها الورقة المطوية.

وضع بخور ا جديد ا ذا رائحة نفاذة في الموقد الكبير ومرَّر الحجاب على النار حتى اطمأن أن البخور نفذ فيه.. قرَّبه ِم ْن فيه وأخذ يهمس بكلمات.. طلب إليها أن تردد وراءه بعض الآيات والأدعية بينما الحجاب على قلبها.. رددت ما قال ونظراتها تنتقل بين حاجبيه الكثين وأذنيه الكبيرين, ولحيته البيضاء المتدلية تحت ذقنه فقط.

توقف وقال: على بركة الله.

دفعت له ما طلب وهي تستشعر الرضا. يخايلها توقع إيجابي لهذه الزيارة.

قبل أن يضع رشوان رأسه على الوسادة لاحظ شيئا بني اللون يبرز طرفه.. أخرجه.. سأل محبات عنه.

قالت مندهشة: أهذه أول مرة تراه فيها يا رجل.. إنه هنا منذ شهرين وزيادة.

سألها رشوان: ما حكايته?

قالت في غير اهتمام: مجرد محاولة.. تصبح على خير.

التقط رشوان وهو في طريقه إلى الجمعية بعض مكعبات السكر.

توقف عند الديك. أمسك واحدة بين السبابة والإبهام.. رآها الملك.

فتح منقاره.. قذفها رشوان في حلقه.. استحلبها الملك.. هز رأسه ممتن ًا.. مسح رشوان على ظهره وذيله. نظر إلى ساقيه.. استدار عائد ا إلى البيت. لمح محبات في النافذة.. قال لها:

–إذا وجدت بعض الوقت فنظفي ساقيه..

أومأت برأسها موافقة.. خرج رشوان إلى الشارع. كان الملك قد بعث في نفسه شعور ا بالابتهاج. سعد به, وهو لا يدرك أنه يعيث في البيت عشق ا.

أشعلت الوابور تحت الماء ومضت تنهي شئون دارها.. أطعمت الملك ثم أدخلته الحمام.. اطمأنت إلى حرارة الماء. نزعت عنها جلبابها وأبقت قميص ا خفيف ا.. مضت تغسل ريشه تحت الدش .. أحضرت من دولابها صابونة جديدة, كان أخوها قد أهداها لها مع بعض الملابس بعد أن عاد من ُع مان. صابونة لها رائحة قوية.. لم تدلك له بدنه

بالليفة التي تستحم بها ورشوان, دلكته بقطعة من قماش الصوف قطعتها من جلباب رشوان القديم.. القماش له وبر ينظف دون أن يجرح أو يخدش.. شملهما بخار الماء بدا أنهما يطيران بين السحاب. بدأت بال ُعرف والذقن ثم المنقار والصدغين والرقبة حتى المؤخرة والمقدمة والظهر والساقين والمخالب.. قاومته كثير ا وضربته عندما يحك ُعرفه في ثدييها ويدس بينهما منقاره, أو يرفع أحد ساقيه فينثني داخل فخذيها.. ويضع صدره على صدرها, ويبسط جناحيه ويحتويها كما تعود أن يفعل. تضربه مرة وتضحك مرات, لكن ذلك لم يمنعها أن تتقن عملها, كانت سعيدة وهي تغسل بحماس أعضاءه, وعندما بلغت ظهره وهو الذي يكتسي بالجناحين. غسلته ريشة ريشة ظهر ا وبطنا وهي تعدها واحدة واحدة, وتتأكد أنها كما أحصتها من قبل أربع وعشرون ريشة, يتجاوز أقصرها المتر طولا, غرفت بالكوز من سطل به ماء أقل حرارة.. أزاح الماء ما عليه من رغاوي الصابون.. عادت تسكب عليه الماء حتى رضيت عن نظافته .. كان الضباب قد انقشع, وبدا الملك متألق ا ومنتعشا.. سحبت الفوطة الجديدة التي علقتها على مشجب خلف الباب.. جففته.. طلبت إليه أن ينتظرها في حجرتها حتى تستحم ولا يخرج حتى لا يصيبه البرد.

لما رآها تخلع ملابسها أصر على البقاء.. دفعته وهي تلعن تربيته السيئة. لامت نفسها لأنها هي المخطئة. لم تعلمه الأدب.. أخيرا خرج. تخلصت محبات من بقية ملابسها وانطلقت تستحم.. كانت تستمتع بالحمام.. تتقنه وتبدع فيه.. تخرج منه غير ما دخلت.. وها هي ترتدي ملابسها ثم تخرج.. الشعر مبلول على الخدين.. يضم بين جنباته السوداء الكثيفة طبق بنور, ملامحها الجميلة, حروف مكتوبة

بالورد.. العيون فوقها نقط مرسومة رسمة الخلاق.. تنطق الحروف بمعا ٍن وترسل رسائل لكل من عشق الجمال.. احضروا حالا ً.

رأت الملك يتأمل نفسه في مرآة التسريحة الكبيرة يستدير جانبا ليتأمل ذيله ويفرد جناحيه ويرفع ساقيه ليراهما.. قفز فرحا حين اكتشف المرآة التي يستطيع كل مخلوق أن ير فيها نفسه .. استقبل محبات بجناحيه.. دفعته عنها.. أمسكت بزجاجة العطر فنثرت منها على كل أعضائه, ودفعته إلى الخارج. عاد محاولاعناقها.. دفعته قائلة:

–امش.. شعري مبلول.

ما إن خرج حتى ظهر رشوان.

سألته: هل رأيت ساقي الملك ?

–نعم..يحتاج إلى النظافة مرتين على الأقل في الشهر.

–كان الأوز والبط والدواجن السبب في اتساخ الأرض, وقد ذبحنا آخرها أمس.. لم يبق إلا الديك الرومي. الأرض الآن نظيفة.

–اليوم.. يمر ثلاثون يوم ا على بدء مشروع الملك السياحي وغد ا سنحاسب العمدة.

–خذ معك حساباتك.. أنت تعرف كم شخص ا حضر.

–وهل أعتمد على العمدة?! .. إنه يأكل مال النبي

–على كل حال.. المشروع حتى الآن غير مزعج.

–أهم شيء أن يظل النظام كما هو.. الزيارة لا تبدأ إلا في وجودي من الواحدة ظهر ا إلى الخامسة مساء .

–العيب الوحيد أنها تمنعنا من الحركة أو السفر.

–ليست مشكلة, نترك مفتاح البوابة لأحد من إخوتك أو إخوتي.

–لا تنس أننا اتفقنا أن تشتري لي بالنقود ذهب ا.

–اتفقنا.

تكررت في الأيام الأخيرة رغبتها في القيء.. ما حسبته بالأمس.. ها هو الآن يتحقق.. الطمث انقطع إلا من نقاط محدودة.. قالت أمها..

– هذا هو ما يسمى الطمث الغزلاني.

استعدت بالشجاعة الكافية لإبلاغ زوجها.. جهزت أفكارها وإذا احتاج الأمر دموعها.

بعد الغداء.. نظرت إليه مبتسمة وأطالت النظر.. كان هذا خارج الترتيب.. لاحظ نظراتها وابتسامتها ووجهها الذي يعلوه البِ ْشر .

سألها: ماذا بك؟

قالت: أفكر في اختيار اسم له.

قال في دهشة: ماذا بك يا محبات؟ اخترنا له من قبل.

سألته: لمن؟

أجابها: الديك.

في شرود قالت: لا أقصد الديك.. أقصد شخص ا آخر.

ابتسم مستنكر ا: شخص آخر.

اتسعت ابتسامتها: أعز شخص في الدنيا كلها عليك وعلي.

مط شفته السفلى: فسري كلامك.

قالت: إرادة ربنا, جاءت على يد من صنع الحجاب.

لمعت عيناه وهمس: أنت؟

هزت رأسها ورموشها وقالت: نعم.

تنهدت من قلب قلبها واستطردت: منذ أن عرفت وأنا..

قاطعها: وكيف عرفت ومتى؟

حكت له ما طرأ عليها بالتفصيل وختمت بقولها:

–سوف أذبح الديك الرومي غد ا.. أنا نفسي فيه

وقف وقال:

–سأذبحه الآن.

–دعه للغد.

–وماذا تريدين أيض ا?

–مانجو.

–ليس هذا موسمها, لكن يمكن أن نرسل من يشتريها من أي مكان.

وقف .. دنت منه.. أطلت في عينيه.

–هل أنت سعيد?

أخذها بين أحضانه.. كانت طبول قلبه تدق قوة.. ظل صامت ا يستمتع بدفء حضنها. شعر أن حضنها مختلف.. أبعدته بحنان عنها.

– الديك وشه حلو علينا.. صحيح أننا تعودنا وجود الدواجن والبيض وقد حرمنا منها, لكن هذا يهون ما دام الله قد أهدانا هذا الديك الميمون.

–لا شأن للديك بهذا.. إنها إرادة الله, والكتابة البارعة التي وضعها الشيخ عوض الله في الحجاب.. كتابة لا تخيب.. قالت لي نساء كثيرات: أكثر من يذهبون إليه من أجل الإنجاب.

ضحك وقال: متخصص في العيال.

تركته ونظرت في المرآة تسوي شعرها.

–لم تقل لي.. لو ربنا أكرمنا بولد.. ماذا نسميه?

–لا.. لا إياك أن تسميه.. أنا أخاف.

–تريده ولد ا أم بنت ا?

–لا تختاري ولا تفكري في النوع.. المهم يولد ويعيش بيننا ويحمله الديك على ظهره.. ويكبر.

تنهد واستطرد: الدنيا ستكون أجمل.. أجمل بكثير.

– كم تحب أن يكون لك من العيال?

–بعد أن يصل بالسلامة نفكر في التالي

تقدم منها. عانقها وقبلها, وقبل أن يواصل الزحف في اتجاه كوكب الشهوة هربت منه قائلة: اغتسل أولا ً

غسل يديه وغسلت ثم التقيا في الفراش ليدقا المسامير في صندوق المولود حتى لا يتبدد هنا أو هناك.

رن جرس الباب بقوة. كانا قد نسيا أنهما محرومان منذ شهور من نوم العصاري بسبب الزيارات السياحية. ارتد ملابسه وفتح للطارق.. كان سراج شرف الدين أحد أبناء القرية.. طالب بكلية الفنون الجميلة. جاء ليرسم الملك. أخذ منه التذكرة.. ألقاها في صندوق التذاكر المغلق خلف الباب وسمح له بالدخول.

خامرته رغبة أن يصلي لله ركعتي شكر.. لقد نسي الله طوال السنوات الماضية, وجر في سكة الإنجاب وحيد ا عاري ا دون أن يلجأ إليه, واستعان بكل شيء إلا هو.. طالت يده الكثير من أموال الدولة التي اؤتمن عليها للصرف على محاولات العلاج.. مع ذلك ها هو الله ينعم عليه بالولد.

دق الجرس فأرجأ الصلاة.

@ @9

كان بطنها ينمو بشكل ملحوظ.. يخرج إلى كل الاتجاهات..

يحرص رشوان في كل ليلة أن يتحسس البطن ويسأل ساكنها.

–متى تجيء؟ أنا في انتظارك منذ عشر سنوات.

ويغني له أغنية عبد الوهاب.

حبيبي ياللي خيالي فيك .. حبيبي .

ياللي حياتي ح تكمل بيك .. حبيبي .

–أود أن أراك.. مع جمر النار أمشي إلى يوم وصولك.. أريد أن أعرف ماذا أخذت مني, وماذا أخذت من أمك.

عندئذ تنكمش محبات في مرقدها وتتداخل.. ثم تخرج من قوقعتها قائلة: يقولون المولود أقرب إلى المحبوب, لا.. إلى من أحبه, لأن فيه قوة الحب.

يشرد رشوان لحظة ثم يقول: إذن سيكون أقرب إليك. لأني..

تقاطعه في دلال: بل سيكون أقرب إليك.. وأرجوك لا تقاطع..

ليكن ما يكون.. هو في كل الأحوال ابننا أو ابنتنا.

قال لها وهو يتنهد راضيا:

–على رأيك.. الإنسان يعشق ولده حتى لو كان قردا.

تسرع قائلة: والقرد في عين أبيه غزال.

يضحكان, ويهنآن بالأمل الذي يحلق في سماء القلوب.

*** * ***

كان ناي البهجة يعزف على أعضاء بدنها المستنيم لحنان خدر..

أطبقت الغطاء على جسمها الذي كان يوشك أن يرتعد من مداعبة برد لعوب.

قبل أن تتم شهرها السابع شرعت تتوجع, وسرعان ما أفضى بها التوجع إلى الصراخ. جاءت أمها وأختها, وبقيا إلى جوارها.. توالى الصراخ فأرسلت أمها تستدعي الداية.

وصلت أم حنفي .. عجوز شمطاء قبيحة الوجه. متينة البنيان..
عالية. سمراء. لها عينان واسعتان .. َجسَّ تها وقالت:
–كامل وإن كان ابن سبعة.
لم تتوقف محبات عن الصراخ, حتى اضطر رشوان إلى إلغاء
الزيارات السياحية في هذا اليوم.
ظلت الحامل تصرخ طوال الليل, والداية تحاول مع الجنين, وفي
السر طلبت الأم من رشوان أن يبحث عن طبيب.
حضر الطبيب فاتسعت عينا أم حنفي.. الصراخ لا يتوقف..
أرادت الداية أن تغادر.. رفضت الأم وكذلك رشوان.. بقيت على
مضض لتتفرج على ما يفعله المتعلمون.. قررت ألا تنطق بحرف..
بعد لحظات ساعدت الطبيب.. ورشوان لا يكف عن الصلاة..
والاستغاثة بالله الذي لا مغيث غيره حتى جاء الفرح مع شروق
الشمس. وأعلن المولود عن وجوده بقوة.
خرج الطبيب وطمأن الأب على وصول الولد العفريت. أسرع
رشوان بالدخول.. طلب أن ير وليده. كان مجرد لفافة.. هنأ محبات
بالسلامة.
–مبروك ياحبيبتي.
–الله يبارك فيك.
–وصل المحروس.
–الحمد لله.
–أود أن أراه.
–ها هو.
–لا يبدو منه إلا وجهه

نظر إليه طويلا .. كان قطعة لحم لها عيون مغمضة وأنف وشفتان مثل حبتي ترمس .. لم يستطع أن يعرف إذا كان شكله أم شكلها.. محبات ترمق رشوان, وتحاول تقييم نظراته وملامحه..

تجرأت وقالت:

–شكلك يا رشوان.

–لا أستطيع أن أحدد.

اندفعت أمها تقول:

–نسخة منك.. قولي له يا أم حنفي.

–ربنا يخليه له ويخاويه إن شاء الله.

دس في يدها مبلغ ا, أحصته بطرف عينها. وجدته طيبا فواصلت الدعاء.

بعد لحظات بكى الطفل فسقته جدته الماء بالسكر, ولم تمر غير ساعة حتى ثقل ثديا محبات باللبن فشرعت لأول مرة في حياتها ترضع مولودها وتحتضنه.

كانت الجدة تداري بحذق شرودها, وتحسن التخلص من مخالب دهشتها دون أن تنطق بحرف. لقد رأت الديك العجيب يحاول بإلحاح النظر من زجاج النافذة, لم تكن تعرف أنه يعرف أن محبات في هذه الحجرة, ولم تكن تعرف أن محبات تعرف أنه يعرف أن محبات هنا, وأنها تلد ولد ا.

سبق أن حدثتها محبات بأمر الحجاب, ولم تحدثها بأمر الديك, لذلك لم تعرف شيئ ا عما خفي من قدراته.

كانت فخورة به.. واحد من خريجي مدرستها المتألقة.. لكنها لا تخفي أسفها لفراغ الدار من صنف الدواجن.. ولا تتصور بيت ا ريف ي ا

لا تستقبلك وتحيط بك فيه الدواجن من كل صنف.. بدء ا من الأرانب إلى الحمام. قالت كثير ا وبلا مناسبة: بيت بلا دواجن.. خرابة. لم تكن محبات حريصة أن يزداد فخر أمها بالديك إلى درجة أن تعلم بأنه عاشق مدلل.. ما إن يراها حتى يسعى إليها ويلمس أي شيء فيها حتى لو كان ذيل فستانها.

ماذا يمكن أن يكون شعورها تجاهه وتجاهها إذا علمت بالعلاقة؟ ماذا يكون شعورها لو علمت أنه وراء حملها وليس الحجاب؟ لكم ودت أن تصرخ بذلك.. لكنها أبد ا لا تستطيع, لسانها لن يطاوعها.. لو طاوعها القلب الجسور.. ولا تملك أن تصرخ بكل ما يمتاز به الديك, وما تفعله لأجله تقديرا لطبيعته الخاصة.

هي لم تحك لزوجها أو لأمها عن قيامها بغسل جميع أعضائه كل أسبوع, ولم تحك له أو لها عن اكتشافها أنه يحب اللب الأبيض, وأنها تشتريه له وتقشره وتضعه.. لبة لبة في منقاره, ويحسب رشوان أن كل هذا اللب تقزقزه وحدها محبات.

لم تحك له أو لها أنه كثير ا ما ينام وخاصة بعد رفع السور على فخذها, تقضي نحو ساعة تمسح على رأسه ورقبته وظهره.. بينما تطعمه اللب أو مسحوق السوداني أو فتات الخيار والقثاء.

لم تشعر محبات من قبل أن حمل الأسرار عسير إلى هذا الحد.. إنها تكاد لأول مرة تدرك معنى كلمة سر.. هذا الشيء المكنون في أعماق شخصين, أو بين شخص ونفسه, وحين يبقى مدفون ا لا تصل المعرفة به إلى أي نفس أخر , يصبح الأمر لذيذ ا وصعب الاحتمال.

كانت تعرف أن هناك دائًما أسرار ا, لكنها كانت تؤمن أيضا أن الأسرار لا يمكن أن تظل على سريتها, متمتعة بالخصوصية ولا تر

النور أبدا وهي في طريقها إلى آذان الآخرين وتأويلاتهم.. لا تبقى سريتها مهما بالغ أصحابها في التكتم.. ومهما كانت قدراتهم الشخصية, لابد أن يلفظ أحد كلمة, ولابد أن تظهر علامة أو تفوح رائحة أو – وهذا هو الشائع – أن يختلف طرفا السر, فيبوح به أحدهما أو كلاهما.

إنها أبد ا لن تبوح, ورغم استعدادها وقسمها على نفسها ألاَّتبوح. فلم تقدر على منع نفسها من البكاء لأن الله سترها, وألهمها فكرة الحجاب, ثم انخرطت في البكاء ثانية لأنها لا تعلم على وجه الدقة هل

الإنجاب تم على يد الحجاب أم بنفوذ الملك ومواهبه.

لم تستطع أن تحدد المشكلة بسبب هذا التزامن.. هي لا تشعر بالندم لفكرة الحجاب, لكنها الآن في حيرة حقيقية, خاصة أنها لا تمتلك القدرة على بلوغ حساب دقيق للشهور.. لقد أسرعت إلى طلب الحجاب تحوط ا منذ أن ضاجعها.. هذا الكائن المعجزة.

ها هي تبكي طالبة من الله السماح والعفو, شاكرة له نعمته وفضله وستره, لكنها لم تذكر شيئا عن أنها لن تعود إلى أحضان العاشق.

لم تغامر بالوعد.. ألم يكن طلب العفو يعني التوبة والإقرار بضرورة الإقلاع عن إتيان المحظور, وما يستوجب طلب العفو من جديد.

ما الذي كانت تفكر فيه وهي تبكي? الموقف معقد على الأقل بداخلها, ويقلل من حجم سعادتها التي تليق بما أنجبت بعد شوق ولهفة سنوات.

إنها لا تزال مرهقة تمام ا ومهدودة.. لا تقدر على مغادرة الفراش.. بالكاد تقيم نصفها العلوي لتشرب الحساء, وتأكل صدر دجاجة مسلوقة. بالكاد تتحامل على نفسها بعد أن تضع لها أختها المولود على حجرها لترضعه, وتصلب لها ظهرها بالمساند, وما أن ينتهي من مص ثدييها.. يحملونه عنها لتنام , وأحيانا لا تفعل قبل أن تتحول على جانبها الأيسر لتطل في وجه وليدها.

أضاء وجهه عندما فتح عينيه الجميلتين.. لكنها كانت تشعر بالقلق بسبب أنفه الطويل نسبيا وشعره البني.. اطمأنت قليلا لأن كل من رأ ملامحه أكد أنه أخذ الكثير منها لا من أبيه, له عيناها وشفتاها وذقنها وجبهتها.

كانت سعيدة برغم غياب صورة أبيه من ملامحه.. لقد أصبح

لديها ولد.. هذا هو المهم.. أما في أعماقها فكان ثمة هاجس يسأل لماذا لا تظهر عليه أي ملامح ديكية؟

الطبيب هو أول من رأ قدمي الوليد, وفي كل قدم أربعة أصابع, وكان أيض ا أول من رأ ذراعيه, ولاحظ أن كل ذراع مرتبط بالجسد بغشاء جلدي عريض يمتد من الإبط إلى الكوع, ويتصل بالجنب حتى مستوي السرة.. يمكنه بهذا أن يبسط ذراعه ويرفعها إلى أعلى, والجلد الواصل بين الكوع والبطن يتجمع ويمتد حسب حركة الذراع.. هذا ما لاحظته الداية, وكذلك الأم والأخت.. لم يقولوا شيئا.. لم تتعود أم حنفي أن تنطق بحرف عن أحوال البيوت التي تدخلها, ولم تتعود أن تعيد – حتى على نفسها – ما تعرفه من أسرار.. صحيح أن الأسرار هذه المرة ثقيلة إلى حد كبير وتمثل إغراء ثر ي ا للحديث, يثمر متعة في النفس وهي تر الدهشة على الوجوه المستمعة غير المصدقة.. لكنها قررت ألا تبوح أبد ا بشيء مما رأت.

مالت الأم على ابنتها وهمست في أذنها متسائلة:

–ألم أقل لك إذا هم زوجك بالنوم معك فسمي الله واطلبي منه أن يسمي؟!

فزعت محبات وقالت: قلت له, لكنني لم أره يسمي أبد ا .. كان يقول: هذه خرافات.. لماذا تقولين ذلك؟

تضاحكت الأم وقالت تهدئ خاطر ابنتها: لا شيء.. أنا فقط أسأل.. على أية حال هي ليست خرافات.. كل الرجال يفعلون ذلك.

في اليوم السادس. ليلة السبوع, تحولت في سريرها إلى وليدها النائم.. لم يكن قد بدا من ملامحه ما يثير الدخان.

فكت اللفافة عند قدميه. اصطدمت نظراتها بالأصابع الثمانية..

دق قلبها ثم ارتج بعنف داخل تجويف بدنها..

– أربعة.. لماذا لم تكن خمسة؟.. ألم يكن بمقدورك يارب. أستغفر الله

مدت يدها ترفع بقية اللفائف, لم تجد ما يثير في ساقيه ولا في

مقدمته ولا بطنه أو سرته.. قلبته على بطنه.. لم يكن هناك غير ما

أبكاها بحق وهو امتداد ظهره إلى مرفقيه.. عدلته لتتأكد. بسطت

ذراعه ورفعتها, أغمضت عينيها في محاولة لستر ما يمكن أن يكشف..

تنهدت بآهة عميقة وقاسية.

لفته واستولى عليها الشرود.. تسللت إلى بدنها رعدة أعقبها

بكاء.. جاءت أمها.. أخذتها بين أحضانها.. سألتها عن أصابع الولد

والجلد الواصل بين الصدر والكوعين.. هونت أمها الأمر:

–بعملية بسيطة ُي َشق الأصبع الرابع إلى أصبعين, بل ولا داعي

لذلك بالمرة.. القدم دائما داخل جورب وحذاء.. ليس ثمة فارق

بين أربعة أو خمسة.

–شكله غير طبيعي.

–أقبل كلامك لو كانت يده.

–وصدره.

–جلد يمكن قصه.. إنه زائد.. لا تقلقي. ألم يخلق الله ولد ا برأسين

وستة أصابع.. لا تنسي أن هذه هي الولادة الأولى بعد عشر

سنوات.. لماذا لا نحمد الله؟!

–الحمد لله.

–ليس هناك ما يشوه صورته و يعجزه عن العمل.

تذكرت كلام الشيخ برهام وكلام رشوان قبل ذلك. لا تود أن

يأتي يوم يشك فيه رشوان.. كانت تمني النفس أن تكون فرحته خالصة

نقية.

استعادت كلمات أمها.

–ليس مهما عدد أصابع القدم, والجلد يمكن قصه.

–استر يا ستار.

علي أن توجسها هذا وفزعها من هبوب رياح الفضيحة ولو من ثقب باب, لم يمنعها من أن تشارك بفرح حقيقي من القلب في حفلة السبوع الكبيرة التي تحمست لها أم محبات.. كما تجلت خلالها بهجة رشوان التي عبر عنها بالرقص الجميل بالعصا, وشارك الأهل جميعا في الصخب الذي أقيم على شرف المولود الجديد.. كان الفناء الكبير يرفل في الأضواء التي بثتها عشرة كلوبات.

ظل رشوان يرقص بلا كلل ويلون في أدائه, فيقفز وينحني ويلقي العصا عالي ا ويلتقطها ويركبها, ويتركها على رأسه الملساء وحيدة دون أن يلمسها, بينما جسده يتلو ويدور عشرات المرات حول نفسه, دون أن يفقد توازنه.. يرقص ويقفز إلى أعلى وينقض فجأة على الأرض فارد ا طوله.. كانت صحته تواتيه بصورة مبهرة وعضلاته تحمله ليؤدي أصعب الحركات, والجميع في دهشة, فلم يكن الكثيرون منهم يعرفون عنه ذلك.

ظل المجنون يرقص حتى تناهى إلى الأسماع قرآن الفجر, ولم يسمع رشوان من قال.. أهكذا يفعل بنا الأولاد?!

@ @10

هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها رشوان من الباب فلا يجد الملك في استقباله. مضى إلى البيت. كان الباب مفتوح ا. اجتاز الردهة على طرفي حذائه.. لمح الديك في غرفة النوم منحني ا على السرير يمسح

ُع ْرفه في بطن الطفل ويقبله بمنقاره.. لم ير محبات.. كانت ضلفة الباب تخفيها .. بلغه صوتها تقول في نعومة وهدوء:

–هل تحبه يا ملك?

ذهل رشوان.. لقد رأ الديك يهز رأسه موافق ا, ثم سمعها تقول:

–سوف نزوجك دجاجة.

مستحيل, إنه يقظ ولا يحلم.. لقد رأ الديك يومئ برأسه رافضا استطردت تقول:

–دجاجة كبيرة وحلوة.

هز الديك رأسه رافض ا.

أحس أنه غير قادر على الوقوف, وغير مستعد لإنهاء الحوار اتجه يمين ًا إلى حجرة الضيوف.. انهار على أحد الكراسي.. أسند رأسه بكفه.. ماذا يعني كل هذا?! لقد رأ منذ يومين أصابع قدم الوليد وظهره.. وتأثر كثير ا من أجله وفكر.. لكنه لم يتوصل إلى شيء .. أكد الجميع أن الولد يحمل الكثير من ملامحه وملامح أمه.

بدأ يجرجر من الذاكرة شظايا متناثرة.. مواقف. كلمات.. هل يمكن أن يكون ثمة تقارب ا أو معنى.. ما الذي يخفى عليه?

منذ شهر رأ الديك يعانق زوجته.. قالت:

– لاحظت في صدره بعض الحشرات الطائرة وأنت طلبت الاهتمام بنظافته.

زلزال شديد يرج أعماقه بعنف.. يردد كل لحظة.

–أربعة أصابع.. ذراعاه يتصلان بجنبيه كالجناحين, يعانقها..

يدخل حجرة نومها.. يقبل الطفل.. يقف بالليل خلف النافذة..

حجمه الكبير.. فهمه لأسئلتها وإجابته بهز رأسه.

مضى يستعيد ذلك مرات كطالب يستعد للامتحان, يحاول أن يدس المعلومات في رأسه حتى لا ينسى.

يعيدها ويعيدها, وينتهي إلى قوله:

–ليس لها غير معنى واحد.. معنى بشع وحقير ولا يلبث أن يرد على نفسه.

–هذا مجرد ظن.. والاستسلام له يعني الشك في زوجته .

يتنهد بعمق, وكأنه يخرج من صدره شيئا ُم ر ا.

–إنه ضخم.. ليس ديك ا عاد ي ا.. لقد رأيته وهو يجيب عليها بهزة من رأسه.. هل يفهم?.. هل يسمع? هل تراه يتكلم ونحن لا نعلم.. ربما أنا فقط الذي لا أعلم.

رأسه بين كفيه:

–لابد أولامن التأكد أنه يسمع ويفهم, واكتشاف إذا كان يتكلم أو لا.. ومراقبته لمعرفة نوع العلاقة.. مستحيل يبدو أنني ُجننت.

فر برأسه من قبضة الانكسار.. فتح عينيه لير أين يكون.. ربما تساعده الأشياء على تلمس الطريق.. طالعته حيطان الغرفة حائلة الألوان.. ترسم عليها الرطوبة بطبقات الطلاء المنهارة أشجار ا وطيور ا وفيلة.

–اطرد يا رشوان هواجسك المتعفنة.

ظل قابع ا في جلسته منهارا.. زائغ البصر, مشتت الذهن. غير قادر على الإمساك بأي فكرة موثوق بها.. مسحوق تحت وقع الشك والمصيبة وخوف الفضيحة.

قالت زوجته تهون عليه الأمر عندما تناقشا حول خلقة الولد.

–الجلد يمكن قصه.. والقدم ليست مهمة.. هذا اسمه بطر.. جربنا

سنوات من أجل الخلفة ولما جاءت.. نقول فيها, وفيها.

تحول إليها وأخذ نفس ا عميق ا ثم قال:

–المشكلة يا هانم ليست في القدم والجلد.. المشكلة أكبر.. المشكلة عندك أنت.. في نفسك.. في أمانتك.. بالعربي.. في شرفك.

فزعت محبات, لكنه عاجلها قائلا :

–إذا كان الحل طرد الديك.. سهل.. قتله.. سهل.. لكن هذا أو ذاك لن يحل المشكلة.. المشكلة في الطفل وفيك.. إلى من تنتميان.. على من ُ ْتح َس با ِن .. ماذا أصنع بكما?

حسدني أهل القرية, لأني تميزت عنهم بالديك العجيب.. اختارني الله كي يرزقني بمخلوق نادر المثال.. فرحنا به وهللنا وأقمنا الاحتفالات وعقدنا الصفقات.. ما هو الحال الآن يا رب?

اكتشف أنه ممدد على سجادة الصالون بملابسه. منطرحا على ظهره.. كان ساعده الأيسر فوق جبهته. رفعه ونظر إلى ساعته.. لقد جاء منذ ساعة تقريب ا.. هل مضى كل هذا الوقت هنا.. لابد أنه نام قليلا و فقد الوعي.. أحس أنه أفضل, وأنه قادر على القيام.. حاول النهوض, لم يجد له عزما.. استسلم لأفكاره من جديد .. تمنى الموت..

استدرك:

–الموت ليس هو الحل.. الفضيحة تطاردك ولا تنتهي بموتك

تماسك ونهض.. دخل عليها.. قالت:

–لقد تأخرت.

لم يرد.

–ماذا بك?

في صمت ارتد جلبابه وخرج.

في الفناء جلس على جذع شجرة مقطوعة من زمن . يدخن سيجارة وينظر إلى الديك الذي كان يتمشى حول السور.. امتص آخر نفس.. رمى العقب على الأرض .. سحقه بقدمه ودفنه في التراب لما دنا منه الديك. وقف قبالته بعد أن أرسل نظرة عجلى إلى ساقيه ومخالبه.. سأله وهو يشير بأصبعه إلى فمه

–هل أكلت؟

هز الديك رأسه من أعلى إلى أسفل.. عاد يسأله:

–هل تحبني؟

أكد له ذلك بهزة من رأسه.

سأله: هل تحب ابني؟

أومأ برأسه.

–هل تحب أمه؟

هز الديك رأسه.. شك في الأمر.. هل يهز الديك رأسه دون أن يفهم

سأله: هل أنت حمار؟

نفى الديك ذلك بهزة أفقية.. تذكر فجأة كلام محبات عن اعتقادها أن يكون الديك رجلا مسخوط ا, ولأول مرة يشعر بإمكانية أن يكون كلامها صحيح ا.. لقد نسي الأمر تمام ا منذ تحدثا فيه, وها هو الآن يجد نفسه في مواجهته.. ليس من المعقول أن يكون هذا الديك إلا إنسان ا مسخوط ا. حاول أن يتخيل شكل العلاقة أو طريقة الالتقاء الجسدي بينهما .. ارتطمت رأسه بالفكرة وفرغ منها .. أرغم نفسه على قبولها وليس المهم كيف , وأغلق عليها الباب . أخذ يصرخ بأعماقه : خنزير وخنزيرة .. كلب وكلبة .

تركه وعاد يجلس على جذع الشجرة. أشعل سيجارة جديدة وفكرة

جديدة.. خطر له خاطر:

– بدلا من طرده أو قتله.. سوف أخصيه, وكفى الله المؤمنين القتال, وليبق كما يشاء, فلا خطر منه. هذه هي الفكرة المثلى, وسواء الولد ولده أم ولدي فلتكن هي النهاية.

نهض من فوره إلى دار عواد راعي الغنم. طلب منه أن يخصي الديك.. سأله عواد عن السبب وهو يتعثر في دهشته.

–كيف يكون لد شخص ديك كهذا ويخصيه. منحة كبيرة جد ا من الله.. يستطيع أن يملأ الأرض دجاجا وبطا وأوز ا. مشروع تجاري رهيب .

حار رشوان لحظات, ثم قال:

–كنت أتمنى ذلك بالفعل, لولا أن الطبيب قال إذا خصيته طال عمره.. وأنا أريده أن يبقى معي دون أن يجري وراء دجاجة أو بطة أو حتى غزالة.

وعده عواد بالحضور بعد الغداء.. أصر رشوان على قيامه معه..

كان عواد شا ب ا فت ي ا. لم يتزوج بعد.. حاولا الإمساك بالديك فلم يفلحا أبد ا.. كان عواد قد رآه في الحفلة الكبيرة, لكنه الآن يراه أضخم..

مضى يدفعه من جانب ورشوان من جانب, والديك يفر مرة ويطير مرة, وعندما أحكما عليه الحصار, انقض عليه عواد وأمسك بساقه, ولم يكن الديك فيما يبدو يتوقع ذلك.. وقع على الأرض.. جذبه عواد بقوة, إلا أن الديك حفر وجه عواد بمخالب قدمه الثانية فصرخ عواد وترك الساق, وهو يشعر بلهيب النار يفح من وجهه, ورأ بعينيه الدماء وأحس بها تسيل في قنوات من الجبهة إلى الذقن..

استعاد الديك توازنه ووقف هادئا دون أن يبتعد, يتأمل في ثبات

ملامح الرجل الملطخ بالدماء والذعر يتملكه, كما يتملك رشوان الذي بهت وأصابه الهلع.. أسرع بعد لحظات من الاضطراب يحضر القطن والماء والميكروكروم والسبرتو.. لقد مزق الديك وجه الضيف. صب السبرتو على القطنة ومر بها على الجروح التي يسيل منها الدم. زعق عواد وانشال وانحط.. تقلب وتلو من الألم.. أمسكه رشوان بقوة وضمد جراحه بالقطنة التي شربت الكثير من السبرتو, وعاد الرجل يصرخ :

– ربنا يأخذك انت وديكك في يوم واحد.. ربنا يخرب بيتك شوهتني.. ضيعت مستقبلي.. كيف ترضى بي سنية زوج ا لها.. كنا سندخل الأسبوع القادم.. هذا ليس ديكا أبد ا إنه أسد أو نمر.

قال رشوان وهو في نصف هدومه:

–توقف الدم.. الحمد لله.. انتظر حتى...

أسرع عواد خارج ا وهو يقول: لن أنتظر.. يكفي ما حدث .

قال رشوان: خذ ثمن السجائر .

–يحرم ع ّلي .

أوجس رشوان خيفة, لقد رأ بعينيه قوة وجبروت الملك.. لن يتورع عن الهجوم عليه إذا حاول أن يطرده, أو إذا فكر أن يخنقه.. المسألة تتعقد.. لم يبق إلا قتله بمسدس أو بندقية من بعيد أو قتله بالسم. والاقتراب منه أصبح خطر ا.

إلى أن يحدث هذا لابد من ربطه في إحد الأشجار حتى لا يتجول كما شاء, ويدخل إلى الدار, ويفعل ما يريد أن يفعل.. وما خفي كان أعظم.. فكيف يربطه إلى الشجرة?

اهتد أخيرا إلى وسيلة يمكن أن يتحقق لها النجاح.. أحضر

حبلا , وأعد في نهايته أنشوطة قابلة للعقد حول رقبته, مثل حيلة رعاة البقر لاصطياد الخيول والبشر أيض ا.

اقترب من الديك, وألقى عليه الحلقة عدة مرات, تفاداها الديك في كل مرة, حتى أفلح في النهاية. جذب الحبل, فانعقد حول رقبته. ربطه إلى ساق شجرة.

منذ أسبوع لم يشعر براحة إلا اليوم, بعد أن ربط الديك ربطة محكمة لا تستطيع زوجته أن تحلها أبد ا, إلا إذا قصت الحبل بمقص الحمير أو بموس.

أمرها ألا تقترب من الديك أو تفك حبله أ □ يا كانت الأسباب , لا من رقبته أو من الشجرة, وألا تقدم له طعام ا مهما غاب عن البيت.. هو الذي سيتولاه, ولا شأن لها به على الإطلاق.

تمدد في الفراش تلاحقه الأفكار أقل لهيب ا وغضب ا, لقد توقف نشاط الديك الإجرامي.. ربطه حقق جميع الأغراض.. ها هو لا يزال في بيته دون خطر ولن يخسر عائد السياحة.

نام في الحجرة الثانية من المساء حتى دخلت عليه شمس الصباح من الشباك ونامت إلى جواره على السرير.

نامت محبات في فراشها متوجسة مما يجري حولها.. من عينيها الدموع سالت. مرت على خدودها خطوط اللؤلؤ ونزلت.. بللت كيس الوسادة الجديد.. اجتاحها حزن قوي وثقيل.. لم يكن أمامها على تلك الوسادة التركواز إلا شلال شعرها الليلي الطويل.

هاجمتها الأحلام التعسة, وقرَّح السهاد جفونها, وانتظرت مع تجلي الصباح قيام زوجها فلم تبلغها عنه نأمة.. نهضت وأيقظته فقد حان موعد ذهابه إلى الجمعية.. هب فجأة يسألها:

–هل أطعمته?

–من?

–وهل لدينا غيره?!

–الولد?!

–الديك.

–لا

–تذكري ألا تقتربي منه ولا تطعميه.. سأطعمه بنفسي .

لا تدري لماذا تمسكت صلعته بنظراتها واستحوذت عليها بينما هو يلقي بالأوامر ويحذر من الاقتراب من هذا الكائن.

تركه دون طعام. مضى إلى عمله. خامره شعور غامض وطارئ أن حجم الضغينة في نفسه قد قل, وربما كذلك عبء الهم الثقيل.. قالت له محبات: لا تنس إنه روح.. والروح ملك الذي خلقها.. ليست ملك ا لك.. وأي كسرة خبز في البيت له فيها نصيب.

دون أن يرد عليها.. ذهب إلى الملك وألقى أمامه حفنة من الذرة وقليلا من الماء في علبة من الصفيح.

في المساء. دنا من السجين. كان كل شيء كما هو.. حبات الذرة لم تنقص حبة.. والماء بقى عند الحد الذي تركه عليه .. تمتم رشوان بكلمات الاحتقار وأهمله.

في الصباح, وجد الذرة كما هي ووجد الماء.. تمتم بعبرات الازدراء ومضى.

غادرت محبات فراشها. دخلت الحمام واغتسلت وهي تفكر في حال زوجها وانصرافه عن المولود.. تناولت فطورها, وهي لا تزال تفكر في أمره, وموقفه الغريب من الملك.

لقد رأته بالأمس وهو مربوط وأمامه حبات قليلة من الذرة..
لم يتعود ذلك, تثق أنه لن يقربه.
مضت إلى الفناء.. وقفت تتطلع إلى السماء والصباح الوليد..
استنشقت عبير المزروعات الذي يعبق الفضاء وينفذ إلى الأرواح الخامدة.. يوقظها من الخمول ويخلصها من الروائح المكمورة.. كانت نسمات طرية تمر على الخدود والشعر والأثواب.
رآها الديك فانتزع نفسه من شرنقة الصمت الحزين. ضرب الأرض بكفيه ورفرف بجناحيه ليلفت انتباهها. حولت نظرها إليه.. نزلت الدرجات الثلاث. اتجهت نحوه فتهلل. دنت منه ومسحت على ظهره ورقبته.
أيقنت من حاله وقلة طعامه أنه يوشك على الموت إذا دام هذا الحال يوما آخر.. ساعتها لن ينفع الندم, وربما يكون رشوان في مقدمة من يحزنون, وكذلك الناس والعمدة والمحافظة التي كتبت عنه في كتابها السياحي , ونشرت له صورة مع نبذة عن سيرة حياته ومواهبه.. سوف تكون مشكلة.. من غير المعقول أن يكون رشوان غافلا عنها.
بسط الديك جناحيه وضم إليه محبات.. ضمها بقوة. كان قلبه يدق بشدة. ينتقل النبض إلى بدنها فيهزها ويناجي روحها المتأهبة للتعاطف معه.. حاولت أن تغادر عش أحضانه. ضغط على بدنها ضغطتين كي تفهم أنه يستبقيها, وأنه يشتاق إليها, لعله كان يشكو لها فعل زوجها. ظلت بين جناحيه بينما كان يتنفس بعنف ولهفة.. وشرع تدريج ي ا يلوذ إلى الدعة.. فكرت في رشوان.. سوف تكتمل المصيبة لو رآها مدفونة في صدر الديك. كانت بالفعل مشتاقة للديك الذي لم تلمسه

منذ شهر أو أقل قليلا .. فجأة رفع جناحيه عنها وتقافز .. سمعت صوت وليدها يصرخ بحرارة وفزع.

اندفعت نحو البيت, لم يتوقف الديك عن القفز إلا بعد أن اختفى من آذانه صراخ الولد.

في المساء راعها أن الملك لم يأكل ولم يشرب, حبات الذرة كما هي لم يلمسها ولم يحركها عن مواضعها, لكنها في الصباح وبعد أن أغلق رشوان وراءه الباب, أسرعت إلى الديك.. طلبت إليه أن يأكل, رفض, كررت عليه رجاءها, رفض, سألته: هل يحبها?, أغمض عينيه وهز رأسه عدة مرات مؤكد ا أنه متيم .

قالت: إذن كل.

أشار إلى الحبل.. فكرت أن تحله. لكن ثورة رشوان المتوقعة لا تعرف مداها.. العلاقة على كف عفريت.. معلقة ومتوقفة تقريبا لكنها تمضي في سكون وبلا مشاكل.. هي لا تريد الفضيحة, كما لا يتعين أن تضغط على رشوان.. لكنها لا تزال غير مدركة لسر تغيره بهذه الصورة.

كيف تفك وثاق الديك دون أن يعرف رشوان أنها هي التي فعلت?.. ليس غير المساء.

دخلت الدار وعادت تحمل في يدها طبق ا مملوء ا بمحشي الكرنب وورق العنب.. كان ساخنا تسبقه رائحته النفاذة.. إنه يحب هذا الطعام, في آخر مرة أكل منه طبقين. متغطرس ا رفض. نظر إلى الطبق ثم تصاعدت نظراته إلى السماء.. أشار إلى الحبل.. كررت عليه الدعوة. أشار إلى الحبل.

كانت تعرف طباعه, خاصة كبرياءه وعزة نفسه واعتداده بكرامته..

تفهمت دوافعه, وقدرت حقه في الاعتصام والإضراب عن الطعام.
مضت وهي تؤكد عزمها على حل مشكلته مهما كانت النتائج.. ليس قبل المساء.

@ @11

وقف رشوان في الصباح على الدرجات الثلاث. يطقطق عظامه.. تقدم من الديك. كان ممدد ا على الأرض ذابلا, منحني الرأس قليلا , مفتوح العين. تترد أنفاسه ببطء, والوهن عليه غالب.
الذرة كما هي .. الماء لم ينقص, وإن علاه التراب.. دهش لقدرته على التحمل واعتزازه الزائد بكرامته.. لم يشفق عليه.
– عامل بطل.. بطل على نفسك وحياة أمك.. الأكل قدامك.. لن أغيره لك حتى لو كان في ذلك موتك.
فجأة.. طار الملك وهجم على رشوان. بهت وتراجع, لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا. فقبل أن يفيق كان الملك قد مزق وجهه وملابسه بضربة واحدة من قدمه, وغدا في حال أسوأ من حال عواد راعي الغنم.
وقف الديك في مواجهته مستع د ا لمزيد من الصراع.. وإن كان يتوقع أن الضربة كافية لتأديب رشوان ورده عن ظلمه وقسوته.
في هذه اللحظة كان رشوان قد قرر وهو يضع كفيه على وجهه من الفزع والألم أملا في وقف الدماء التي تنزف بشدة, أن يقتله.. لابد من قتله.. لابد: سوف أقتله حتى لو مت معه.. لن يمنعني إنسان مهما كان عن هدف حياتي الوحيد. وسحق ا للهانم محبات وابنها, وسحق ا للسياحة ودخلها.. سحق ا للناس والأهل.. سحق ا لحياتي نفسها.
ُه ِر َع إلى الجاروف الذي كان بجوار الطلمبة .. قبض عليه بيد من

حديد وقلب من حجر. استدار عازم ا تحطيم هذا المخلوق المغرور العربيد الذي تفرعن وتضخم وسيطر, حتى لم تعد ثمة وسيلة لمنعه وكبح جماحه.

كان الديك يرفرف بقوة ويرتفع في السماء والحبل المعلق في رقبته يتدلى منه ويتبعه أنى توجه.. أخذ يحوم عالي ا في الفضاء حريص ا على أن يظل فوق رشوان عدة دقائق حتى يصيبه بالحسرة التي تليق بالمنتقم الذي ُأ ْح ب ِ َط .

رآه من أعلى ضئيلا وتافها, يلوح بالجاروف ويصرخ:

–تعال يا جبان يا ابن الكلاب.. تعال يا زاني يا ابن الزانية..

يا ويلك لو وقعت عيني عليك مرة أخر .. جرب.. لن تعيش طويلا .. سوف أراك وأنت ممزق.. سوف تلقى حتما ما كنت سوف تلقاه على يدي.

طار الديك بعيد ا حتى اختفى عن عيني رشوان. مباشرة دخل إلى دورة المياه.. تأمل وجهه في المرآة.. لم يجسر على وضع السبرتو كما فعل مع عواد. غسل الوجه الممزق بالماء.. ثم سقى الجروح بالميكروكروم ووقف يطل في المرآة, لم يكن سليًما في وجهه إلا العينان.. لف وجهه بفوطة ومضى إلى حجرة النوم الثانية. أغلقها على نفسه. دفن وجهه في الفراش وهو ينتفض من الحزن والسخط على الجميع.. كيف سيواجه الناس؟ كيف يمضي إلى الجمعية؟.. كان يتعين أن يذهب الآن.. ستصل اليوم لجنة من المديرية.. كيف قفز فوقي بغتة هذا الغادر؟.. الحبل.. هل كان محلولا ؟ً.. من غير المعقول أن يتمزق بمجرد هجومه ع ّلي .. هل فكته محبات؟.. لا أظن.. كان واضح ا أنها التزمت بما أمرتها به.. سيسأل عنه الناس والعمدة.. ليس هذا أمر ا مه ما .

احتدم في رأسه الفكر واشتعل رأسه من الغيظ والحنق.. ضرب السرير بقبضتيه.. أفلت مني دون أن ينال العقاب الذي يستحق.. كان يجب أن أقتله.. كان لابد.. عاد يضرب السرير بقبضتيه, فيهتز هزات كانت كفيلة بهدمه.

واصل الملك طيرانه إلى أن بلغ حقلا خالي ا من أصحابه. هبط إليه. التقط من أعواده سنابل القمح الخضراء وفصوص الفول الأخضر. عثر على ثمار الطماطم. شرب ما استطاع من رحيقها ونقر في ثمار الخيار.. حفر الأرض بحثا عن البطاطس ثم انتقل إلى حديقة البرتقال. تمشَّى بين الأشجار, مد منقاره إلى ثمارها. كان يقبض به على البرتقالة ويجذبها جذبة واحدة فتسقط تحت مخالبه وإذا استعصت يجذبها ويلويها حتى يفك عقدتها وتقع. يتشبث فيها بمخالبه ويلتهم لحمها الطري الأصفر.

شفى غلة جوعه التي دامت أربعة أيام.. تنفس بملء رئتيه هواء نق ي ا يفوح بعطر الزهور والحرية .. تمشى إلى الترعة فشرب, ونزل على بعض الأحجار حتى ابتلت ساقاه ونثر الماء على ريشه, وانحنى فغمس رأسه الكبير وعرفه وذقنه في الماء الجاري وعاد ينثر الماء على ريش ظهره وذيله وتمطى وانتعش.. تنفس بقوة فملأ الرئتين.. إنه الآن مستعد للحياة مؤهل لشهواتها.

آب إلى الحقل يبحث عن الظل ليرتاح قليلا مما أصابه, فهو لم ينم الليل .. بقي معظمه مسهد ا يفكر في حاله وحال الأسرة التي ارتبط بها ورشوان التعس الذي بدأ المعركة.. وتغير فجأة.. لماذا تغير هكذا?

توقف عند شجرة, برز في جذعها فرع صغير جاف.. دنا منه وأدخله خلف رقبته.. حاول عدة مرات حتى علق الفرع بحلقة الحبل

التي تلتف حولها.. انحل الوثاق وسقط الحبل.. الآن غدا ح ر ا طليق ا..

لا يملك إنسان أن يمسك به أو يفرض عليه سلوك ا لا يروقه.. كيف تمكن رشوان من تعليق الحبل برقبته? لن يتكرر هذا أبدا.

اشتاق إلى الأنثى. الطريق الآن إلى الجميلة محبات مسدود. أليس هناك غيرها حتى يعود السبيل إليها وإلى الولد?!. كم يود لو يطل في عيون ولده !!

انطلق الملك. كانت أجنحته تخفق بقوة وتثير الغبار والرياح.. تهتز أغصان الأشجار وتتراقص أعواد القمح والفول والبرسيم وتميل شواشيها كأنها تحاول أن تراه.. قاوم فكرة الانتقال إلى قرية أخر ..

قرر أن يعود إلى قرية محبات. يشعر في أعماقه برغبته أن يكون قريبا منها.

حوم فوق البيوت الفقيرة والأسطح الممتلئة بالدواجن والحطب وأقراص الجلة الجافة.. تأمل المساكن المعتمة المبنية بالطوب اللبن وعليها من الرماد والقذارة أكوام.

لمح امرأة تتعر فوق منزل عال جميل ونظيف.. خفف من خفق أجنحته وهبط بحذر على سطح غرفة وحيدة أمامها سطح كبير, تتمدد في منتصفه امرأة تخلصت من جلبابها.

استسلمت للشمس مغمضة العينين.. هبط خلفها في خفة ونعومة. دار حولها مرة ومرتين. وقف أمامها, لو فتحت عينيها لرأته.. هرش الأرض بمخلبه.. في كسل وثقة واربت رموشها الطويلة لتر .. ولما رأت.. أسرعت تفتح عينيها إلى أقصاهما.. رأت ودهشت وشرعت تدريج ي ا تقف.. تأملته طويلا بانبهار.. كان هو الآخر يحدق في لحمها الذي سوته الشمس خاصة المواضع الظاهرة.. الذراعان والكتفان..

الصدر والفخذان.

كانت أقل جمالامن محبات, لكنها أصغر وأرق, وإذا كانت محبات أجمل وهي بالفعل كذلك, فأين هي الآن ولا سبيل إليها إلا يمر برشوان الثائر بلا سبب. ها هنا فقط سيدة السطح.. أول من سيتعرف إليها بعد محبات.

دارت حوله كما دار حولها. دنت منه أكثر فلمست ريشه, واستعذبت ملمس رقبته الناعم, وأدهشها هذا التماوج اللوني فيها وتداخل الأحمر في الأخضر في الزيتي في الأصفر في الليموني في الأزرق في السماوي في الأسود في البني في الأحمر في البرتقالي في الأصفر في الأخضر في ال... في ال..

تحسست ذقنه المزدوجة الطرية. سر إليها دفء حميم هزها.. كان كل طرف كالرغيف البلدي المرحرح.. قوي ودسم وحنون. صعدت يدها البيضاء الرقيقة نحيلة الأصابع إلى العرف.. التاج الأحمر المنتصب في كبرياء وشموخ.. تمشت أصابعها على أطرافه المتعرجة. تساءلت في نفسها فرحانة عن الصفاء الذي يطل من عينيه .. كانت السماء بما فيها من سحب تنعكس على مرآة عينه, وكذلك ظهرت أمامها في ذات المرآة ملامح الغرفة الوحيدة على السطح.. تلك الغرفة التي هبط عليها أولا ً. وتألقت في المرآة الصافية في قاع عينه صورة الطيور التي حومت لتشهد الكائن العجيب. رأت الطيور ولا شك أنه يشبه الديك الأرضي الصغير الذي تعرفه ويعيش هناك بين الدجاج في الحظائر وفي الأفنية وعلى الأسطح.

أخيرا وقفت في مواجهته.. تحت عينيه تماما.. قالت: هذا ديك محبات.. لقد سمعنا عنه ورأيناه.. ما أجمله وما أسعدها به !!

كان الملك مشغولا يتأمل ثدييها المكورين المتوردين ووجهها الجميل ذي الملامح الدقيقة وكتفيها الناعمين وذراعيها العاريين, وقميصها البمبي الشفاف, ومن خلاله تظهر بقية الثديين والبطن الصغير المستدير محفورة على قبته دائرة صغيرة.

تملكتها الدهشة.. أي روعة تتجلى في هذا الكائن.. أطلت في عينه. سال الحنان منها والوداد.. سال وتقطر في قلبها العجب والإعجاب.. تجمدت مبهورة.. بسط دون أن تشعر جناحيه ولفهما حولها.. أخير ا أحست.. توجست في البداية, لكنه كان لطيفا إلى درجة منعتها أن تنزعج من الريش الملون وهو يدور حولها ثم يضيق ما يحصره حتى لا يكون بين الجناحين إلا هي.

لمسها بحنان وضمها أكثر وأكثر.. واجه صدرها صدره..

استشعرت نعومة القطيفة التي لا هي ريش ولا هي شعر.. أحس بدنها نبض قلبه. هدأ وأنصت للموسيقى الخافتة التي يتبادلها الجسدان.

رويد ا رويد ا أغمضت عينيها. ازداد الدفء وانسجم الجسدان والقلبان واتحدت الأنفاس واختلطت.. اختفت تماما تلك المخلوقة البشرية, سيدة السطح في حضن الجسد المشبوب.. حملها بالجناحين فما كادت تحس بأنها محمولة. وضعها في رقة على السجادة المهترئة التي كانت تتمدد عليها. بسط جناحيه بعيد ا عنها ومدد فوقها البدن الدافئ.. ذابا معا في لقاء شمسي فريد لا تشهده غير السماوات والطيور .. من ذا الذي لا يصدق أن موجة يتيمة تائهة َق ِد َمت متلوية محمولة على سرير الماء اللازوردي من البحر البعيد الهائج.. مضت مسافرة حتى استقرت على ذلك الشاطئ المغمور.. نفذت في رماله وذابت , وشرب الرمل واتحد مع الموجات الغريبة حتى تغير.. تغير.

انتهى كونشرتو التوحد الوجد حيواني الإ ْنس ربَّاني, الذي تتحدث الكائنات خلال لحظات تألقه لغة مشتركة, تجيدها وتفهمها كل المخلوقات حتى الرياح والسحب.

ودع الملك الصديقة الثانية. كان عليه أن ينصرف ليقضي بعض حاجته على وعد بالعودة قريب ا.. قبلت المتيمة به – مرغمة – رحيله المباغت, ولمَّا تتعرف بعد على كل ما متعه الله من مواهب.

من فوق السطح أطلق جناحيه.. وقبل أن يمضي بعيدا تحول برأسه وألقى نظرة حنونة على الفتاة الناعسة.. بدت كأنها كانت تترقب نظرته الأخيرة. لما علا الملك في الفضاء متجها إلى عمق القرية, تسقط نظراته على أسطحها المتربة.. تحتها بيوت كعلب قديمة شكَّلها الأجداد الراحلون من طين وقش وهباب وصمت ورضا وعجز.

دنا من النهر.. التقطت عيناه مشهدا جميلا . فيللا شبه منعزلة, تفصل بينها وبين بيوت القرية مساحة من الخلاء تسمح للمرء أن ير من أي زاوية بيت ا من طابقين تزينه الزخارف والألوان, تحيط به حديقة, في وسطها سجادة خضراء ناعمة تغري بالنوم عليها والتمرغ في طراوتها.

هبط الملك في ركن منها. شرع يجول بنظره في جنبات الحديقة, وقبل أن يخطو في اتجاه السلم. تناهت إليه أصوات بشرية. أسرع بالاختباء.. خرج رجل بهي الطلعة أبيض الشعر أحمر الوجه يرتدي بدلة رمادية أنيقة وحذاء أسود لامعا, يحمل في يده حقيبة صغيرة سوداء.. آخر ما سمع الديك.. صوت نسائي:

–لا تتأخر.

–ساعتين لا أكثر.

اجتاز الأنيق الأشيب الممر الأوسط للحديقة في خطوات
لا تناسب سنه الكبيرة.. ركب سيارة بيضاء متوسطة العمر ذات
ماركة مشهورة. دمدم المحرك. هيج التراب وابتعد.
تحرك الملك في اتجاه الباب. كان مغلق ا.. دار حور البيت. لم يجد بابا
مفتوح ا ولا نافذة.. الستائر تغطي كل شيء.. عاد إلى الباب الكبير..
صعد الدرجات الخمس.. خبط الشراعة الزجاجية بمنقاره.. لم تبدر
استجابة.. خبط من جديد بقوة.. سمع زحف أقدام ثقيلة. فتحت له
سيدة عجوز.. فزغت في البداية.. تراجع قليلا إلى الخلف.. تفلت في
عبها السيدة.. عادت تنظر إليه.. وتدريج ي ا شرعت ملامحها في
الانبساط والرضا ثم العجب.. تأملته من تحت لفوق, ثم نادت قائلة:
–يا نجو .. نجو .. تعالي بسرعة.
هللت نجو لما رأت الديك.. دارت حوله.. لمست ريشه
قالت: لابد أنه الديك الذي سمعنا عنه.. ديك.. ديك
–ديك محبات.
–نعم يا أمي.. ديك محبات.. لكنني أعرف أن عليه حراسة.. كيف
يا تر غادر سجنه?! تعال لأصورك.. هذه فرصة نادرة.
–التقطي له ما تشائين من الصور حتى أجهز الصينية وأدخلها
الفرن.
سارت نجو بعد أن أشارت للديك كي يتبعها.. تأمل عودها
الرشيق وحركات راقصة يؤديها برشاقة شعرها المعلق كذيل الحصان.
صعدت سلما رخام ي ا عريضا.. صعد وراءها.. كان البيت مختلفا عن
كل البيوت.. نظيف ا لامع ا وناسه كذلك.. دخل معها حجرتها. رأ
وجوه ا على الحائط.. ورأ كتب ا وصورة كبيرة لنجو وكذلك أمها

والرجل الطويل الأنيق الذي خرج.

فتحت درج مكتبها الكبير وأخرجت الكاميرا. شرعت تعدها والديك يتأمل ما حوله.. أضاءت نور الغرفة. مضت تلتقط له الصور.. ترفع رأسه مرة إلى أعلى, وتحنيها إلى أسفل وتلويها إلى اليسار.. صور قريبة وصور بعيدة.

صورته في الغرفة وعلى السلم وفي السطح.. صورته على السرير وإلى جانب الورد وفي الحديقة تحت الشجر ومتقلبا على العشب وصاعد ا على السلم. لما اكتفت. صعدت لتعيد الكاميرا إلى حجرتها.. صعد وراءها ولم يضيع الوقت.. قبل أن تنادي أمها عليها كان قد أنهى مهمته وترك نجو مذهولة, ونزل ليلبي نداء الأم الفرحانة بزيارة الكائن الفريد..

لما أفاقت نجو من ذهولها وروعة المفاجأة, كان أبوها قد عاد أمسكت بالديك وقررت جهر ا وعلى الملأ أنها لن تتركه حتى لو جاءت صاحبته بالجيش نفسه ليأخذه.. كائن خرافي.. خفيف ونظيف رقيق وقوي ولذيذ.. قررت أيضا أن تملأ صوره البيت كله.. اعترض راغب بك أغنى أغنياء البلد على هذه المبالغة من نجو ; لأنها كانت ملتصقة به لا تفلته حتى وهي نائمة, وهي في الحمام وهي تقرأ وهي تسمع الراديو وهي.. وهي.. لكن الملك لم يستمر. كان لابد أن يغادر.. كان لابد أن يكون كما يريد.

أجر الملك عدة محاولات للتسلل حتى أفلحت الأخيرة. وتخلص من أحضان نجو وهي نائمة قبل الفجر بقليل. صعد السلالم إلى السطح. عثر على السماء العميقة أمامه مرصعة بنجوم تثقب الليل ولا تضيء إلا همسا.. الجو بديع والبشر هامدون والنسيم يسقي

الأبدان.. نغم حزين يتردد داخل أعماق الملك.. لكن الليل الفاتن بمقدوره أن يغسل الأحزان..

تناهت إلى سمع الملك الذي كان لا يزال واقفا على السطح يتطلع إلى النهر الناعس والسماء الكحيلة, ينعم بالنسيم البارد أصوات مزمار.. أطلق جناحيه في الفضاء وتعلق بخيط الأصوات. تتبعها.. أخذت تتصاعد وبدت معها الأنوار التي تنثرها بقوة لمبات كهربائية في شكل عقود حول بيت شيخ البلد.

هبط الملك خلف البيت.. وقف في الظلمة يرقب الحفل الكبير..

شيخ البلد يزوج ابنه, وكان هو قد تزوج للمرة الثانية منذ أشهر قليلة.. الأب يرقص بنفسه, والموسيقى تطلقها الآلات والمزامير والطبول, الزغاريد تتوالى والأعيرة النارية تصرخ وتنطق وتنير وتسقط بقاياها هنا وهناك..

تجاوب الديك مع الأنغام الصاخبة لحظات ثم فقد الرغبة في مواصلة الاستماع. تسلل إلى الباب الخلفي للدار.. كانت على يمينه غرفة, تحت بابها خط من النور ومثله فوق الباب. دفعه بهدوء وحذر عدة سنتيمترات.. َسرَّه ما رأ ◆ داخل الغرفة.

لم تتنبه لدخوله وهي تجلس أمام مرآة صغيرة لا تر ◆ فيها إلا وجهها.. كانت تضبط الكحل في العينين بحذق.. إنها المرة الأولى التي ير ◆ فيها امرأة تلبس مثل هذا الثوب. أغلبه عار والباقي مخملي تتدلى منه قصاصات وتصلصل في ساعديها الجواهر.. دنا منها فطلع عليه عبير نافذ الرائحة.. استدارت فجأة وقد أحست به. ضحكت ضحكة ساخرة ودون اهتمام .. عادت إلى المرآة.. قالت:

–روح اقلع الذي تلبسه يا شاطر.

راعه أنها لم تدهش.. تقدم منها أكثر وقد شاقه أن يتعرف على الوجه الغارق في الألوان والصدر الكبير المقتحم.. صورة أخر للمرأة القوية الممتلئة في دسامة عارمة وحضور مكين.. هي بلا شك تختلف عن نجو الرقيقة التي ترسم, وتأكل القليل وتكمل طعامها بالموسيقى. خطوها همس وصوتها هديل حمامة.

قالت:

–حركاتك لا تخيل على راقصة وحياة ماما.

أحاطها بجناحيه.. لم تستطع أن تكمل زينتها.. صرخت فيه.

–وبعدها معك.. بطَّل سخافة.

واصل الملك مشروعه العاطفي.. أحاطها بجناحيه, وقفت.. بدا طولها الفارع داخل عباءته الريشية, دارت بداخل الجناحين وواجهته.

–نعم.. طلباتك.. لو رجل اكشف وجهك.. اكشف مثلي .. انظر إلي.. أنا ُحرمة ومبينة كل شيء.. أما أنت فجبان .. هيا.. ابعد عني

طرق الباب طارق قائلا :

–الكل في انتظارك مشتاقين.. هيا يا ست الكل.

بقي الديك في وضعه ينظر إليها في هدوء, لكنه لا يستطيع أن يمنع انزعاجه من مقاومتها وصمودها, ونظرات الازدراء التي تصبها عليه.. لم يدر بما جر إلا بعد أن جر .

دفعته دفعة قوية لا يذكر أنه أحس من قبل بمثلها.. أطاحت به الضربة بعيدا وألقته عند الباب. أعادت النظر في المرآة .. بعثرت شعرها وفتحت الباب بصعوبة حتى خرجت.

ظل الديك لحظات تائه ا مذعور ا.. هل هذه امرأة?!.. ليست امرأة.. فماذا تكون?!.. لولا أنه رأ وجهها وجانب ا من جسمها العاري.

تحامل على نفسه وخرج .. عاد يقف في الركن المظلم بعيد ا عن الناس ربما يراها بينهم. بلغته الموسيقى.. قبل أن تقع عينه على أي مخلوق رآها.. نعم هي. تتلو بطولها السامق ولحمها الراسخ. تنثر شعرها.. وتنحني بظهرها وتثني جذعها إلى الخلف حتى يلمس شعرها الأرض المفروشة بالرمل.. بينما ساقاها يواكبان الإيقاع مع الطبلة.. ثم يعلو الإيقاع فتقف وتفرد طولها وترفع ساقا إلى أعلى مكتنز ا ينساب في رشاقة بادئا من تحت البطن عريضا وممتلئا.. اسطوان ي ا ومندفع ا في اتجاه الركبة ثم الساق وربلعة فالقدم.. وينزل هذا الفخذ ليصعد أخوه .. تتوالى الحركات العفية والناس صرعى الإعجاب, يصرخون ويضحكون .. يتجاسر بعضهم فينزل للرقص حولها دون أن يمسها, لكنها تكتسحه وتزيحه فيبتعد عنها متمسك ا بالتعبير عن براعته في الرقص, لا أحد ينظر إليه.. يتوالى هبوط الرجال إليها.. يخرجون محافظهم ويدسون الأوراق في صدرها ويلصقونها بجبينها ومنهم من ثبَّت تلك الأوراق المالية الملونة في خيط ثم علقه في رقبتها. ومنهم من نثرها على رأسها .

ُجن الديك.. تلبسته حالة لم يستشعرها من قبل.. ود لو يدخل الآن ويرقص معها لحظات ثم ينقض عليها.. لن يتركها أبد ا.. هذه هي المرأة التي يريد.. شعلة من النار تتقافز أمامه وتستفزه.. توخزه بحركاتها النزقة الملتهبة.. لن يتركها أبد ا.

بقي واقفا في الظلمة يتلظى وأعماقه تصهل باللهفة والثورة.. سوف تر من هو الملك الذي ألقته على الأرض بضربة غادرة. سوف تر من هو الملك الذي استسلمت له كل النساء.

لما أوشكت على الانتهاء. سبقها إلى الغرفة ووقف وراء الباب..

دخلت مندفعة.. اتجهت مباشرة إلى المشجب.. سحبت ما عليه من ملابس واستدارت. وجدته أمامها.. قالت باحتقار واستهانة:

–إنت سخيف سخف.

دفعته من طريقها وخرجت. كانت السيارة بانتظارها. فتح لها سائقها الباب. ارتمت على الكرسي وهي تقول:

–بسرعة.

وقف الديك بعيد ا كشبح في الظلمة يرقب الراقصة وهي تنفذ في السيارة. الناس ينكبون عليها والأولاد يركبون السيارة ويتقافزون فوقها.. وسرعان ما انطلق السائق, يشق بها طرقات القرية الضيقة..

جر الجميع خلفها لحظات ثم تفرقوا.

انتبذ الديك مكان ا طر ي ا هادئ ا فجلس فيه يمضغ خيبته.. يلوم نفسه لأنه لم يتبعها.. تراءت أمامه وحش ا أسطور ي ا غريبا ولذيذا.. لماذا لم تدهش عندما رأته كما فعلت كل النساء.. لماذا لم تستسلم له كما فعلت كل النساء?.. غريبة.

سمع صوت بكاء.. مضى صوبه, اقتاده الصوت إلى بيت من دور واحد.. دفع الباب. كان مغلقا.. طار وحط على السطح.. نزل الدرج.. بلغه الصوت واضح ا وصافي ا.. دنا من صاحبته.. كانت بنتا في سن الصبا لا تزيد على الخامسة عشرة, تبكي أمها التي تتمدد أمامها محتضرة.

وقف لحظات لا يدري ماذا يفعل. لمس البنت بقدمه.. تحولت إليه.. رأته في الضوء الباهت. فزعت في البداية ووقعت على الأرض. مسحت دموعها.. عرفته. كانت قد رأته في بيت محبات.. بسط عليها جناحيه. حملها وصعد إلى السطح.. مددها وبسط جناحيه من جديد

عليها.. نسيت دموعها وهي مع هذا الديك الخرافي.. ظل يداعبها ويؤانسها حتى أشرق الصبح. فحملها من جديد. نزل بها. وسَّدها إلى جوار أمها.. راحت في سبات عميق. كانت أمها قد انتقلت إلى الرفيق الأعلى وانتقل الملك لاكتشاف صديقات أخريات.. مر تقريب ا على كل بيت في القرية.. صادف النساء والبنات.. العوانس والمتزوجات.. الأرامل والمطلقات. العذراوات والأمهات والجدات.. تذوق طعومهن حتى افتقد القدرة على التذكر. إنه مجرد طائر لا يتشكك فيه أحد, بل يفرح لقدومه الجميع ويهش له كل من يلقاه, وكم يحاول الرجال إذا رأوه أن َي ْس َت ْب ُق و ُه لكنه كان غير مستعد لإطالة الزيارة, كان دائًما على ارتحال مع وعد بالعودة, فقد ولد بالقرية أ ي ا كانت سلالته, وانتسب إليها وتربى فيها وسعد بأهلها وسعدوا به, هي إذن بلده, ولن يكون لغيرها.

حاول البعض الاحتفاظ به حتى يكون لهم وحدهم ولا يعلم بأمره غيرهم, لكنه كان قد أعلن الحرية والاستقلال وذاق حلاوة ذلك السلوك.. لقد مضى زمن القيد ولم يعد مستع د ا لقبول الأغلال بعد أن كوته نارها وأذلته. لابد أن يذهب إلى حيث يشاء ويرحل متى أراد.

حاولت كل امرأة أن تكتم خبره.. لكن الأخبار رغم ذلك كانت تنتقل من موضع إلى آخر ومن أذن لأذن, وتبقى الأسرار مؤقتا في القمقم.. لكن كل امرأة جاءها لابد تفهم أنه جاء أخر .. أما الرجال فلا يعرفون إلا أنه ديك رشوان, ما عاد يحتمل المقام في بيته فسمحوا له بالتجول في القرية, وهو فيما يبدو لهم كائن اجتماعي ظريف يحب الناس ويحمل لهم كل الود والتراحم.. وهكذا حملت كل إناث القرية من ود الديك ومحبته.

@ @12

لم تحس محبات بدخول زوجها دورة المياه والغرفة الجوانية.. اليوم.

صابحة الب ِن َيَّة مزاجها متعكر.. القلب مقبوض والروح كأنها داخلة في نفق معتم.

خرجت لتلقي على الديك نظرة.. فكت وثاقه بالليل البهيم..

فكرت أن تسأله إذا كان يقبل المحشي أو تجهز له غيره.. لم تجد أحد ا.. خبطت صدرها.

–يا لهوي.. أين الديك؟.. لابد أنه خرج.. كيف خرج.. يمكن طار .. يا مصيبتي أنا الغلطانة.. حللت له عقدة الحبل.. أين تراه ذهب؟ مصيبة وحطت علي ِك يا محبات.

انطلقت تجري في الفناء, وحول الدار, داخل السور وعند الفرن في عشة الدجاج الخالية التي لا تتسع له.. لا أثر.. فوق السطح.. لا أثر..

–ربما كان رشوان هو الذي أطلقه.. فهل أنتظر حتى يعود؟.. ربما لا يكون رشوان.. الأرجح أنه طار في الليل.. لقد كانت حالته النفسية سيئة ج د ا, وكان ساخط ا على الطعام التافه والقيد وسوء معاملة رشوان, وعدم قدرته على رؤيتي ورؤية الولد.. كيف إذن يطاوعه قلبه أن يتركنا.. لن أسكت.. سوف أبحث عنه في كل مكان.. لن أسمح لأحد أن يأخذه مني ولن أدع الفرصة كي ينال منه أحد حتى لو رشوان.

دخلت البيت. اطمأنت أن الوليد نائم. لبست الجلباب الأسود .. عقدت التربيعة البيضاء على رأسها. غطتها بالطرحة الحرير السوداء.

انطلقت إلى الجمعية.. المسافة لا تزيد على مائة متر.. التقت عند الباب

فرج ساعي الجمعية, سألته عن الأستاذ.. قال لها إنه هو نفسه كان قادم ا ليسأل عنه إذ لم يأت حتى الآن.

رشوان والملك اختفيا مع ا.. استبعدت أن يكون نزاعا قد شب بينهما, خطف الديك على إثره رشوان وألقاه بعيد ا.. رشوان ثقيل.. ولماذا يخطفه? ليس لديه أسباب للنيل منه, لكن رشوان يبدو في حالة غير طبيعية.. قالت لفرج: ربما ذهب مباشرة إلى مديرية الزراعة في البندر.

مط شفتيه قائلا : ربما.

قررت أن تقوم بجولة في القرية لعلها تجده.. حدثها القلب أنه لن يتركها ولن يتخلى بسهولة عن الولد, يعلم أنه ولده.. لن يرحل بعيد ا مهما حدث بينه وبين رشوان.

لعنت فكرتها المجنونة:

–أنا مخي جزمة.. أشفقت عليه فضيعت الدنيا.

رجعت إلى الدار.. أطلت على الولد, كان لحسن الحظ قد شرع يتقلب ولم يبدأ بعد صراخه الذي اعتاد أن يطلقه إذا لم يجدها إلى جواره, أو إذا جاع أو ابتل, فإذا صرخ فإنه يوقظ الميتين.. أبوه لم يكن له صوت ولا حتى للأذان.

جلست ترضعه.. بعد شهور طويلة من ال ِع ْ َشر ِة هرب الملك.. لقد نفذت روحه في روحها.. بالنهار تراه وبالليل تحلم به..

كائن نبيل عاشق.. صادق العشق.. كان يحرس البيت.. وكان قليل الطعام. يعيش بيننا في صمت.. إنها غلطتي.

ترقرق في عينيها الدمع, بينما كانت وساوسها تحاصرها, والأفكار النزقة تعصف بها.. ثديها في فم الولد.. ولده.. ضمته بقوة.. كان

يغترف من صدرها الكثير من اللبن ويكبر.. يكبر بسرعة.. عادت تضمه وتفكر في أبيه.. هل تترك الملك حتى ينام الولد أم تحمله على صدرها وتدور في القرية.. كيف لها أن تقطع شوارع القرية وهو على كتفها.. صعب.

لاعبته بعض الوقت.. عندما تمثل لها طيف أبيه.. لم تطق صبر ا.. حملت ولدها وخرجت لا تدري كيف يكون البحث.. هل تسأل الناس مباشرة أم تكتفي بالتجول والنظر؟ وماذا يفيد ذلك إذا كان قد دخل بيت ا ما؟ لابد من السؤال.. بدأت بالشارع الكبير. مضت تسأل كل من تلقاه..

–ألم تر الملك؟

–أي ملك؟

–ديكنا الكبير

–هل اسمه الملك؟

–نعم

–لا.. لم أره

لم يقل لها أحد إنه رآه.. هل يمكن أن يكونوا صادقين.. انتقلت إلى بعض الشوارع الضيقة.. أسعدها أنها أخير ا عثرت على رجل قال لها:

–لقد رأيته وأنا ذاهب إلى الغيط.. كان يطير في السماء.

قال ثان:

–لقد رأيته في غيط أم الخير بالقرب من الساقية.

وقال ثالث:

–كان يتمشى عند الترعة غربي البلد.

تسلق الأمل عروق دمها.. رقصت روحها طربا.. ها هي على

وشك أن تلقاه.. ستعتذر له, وتعده أن يعيش معهما بشروطه وكما يشاء حتى لو اقتضى الأمر أن تأخذه معها إلى دار أمها, وتترك دار رشوان ليتمتع بها وحده.

واصلت سؤالها.. التقت بمن لم يره, والتقت بمن رآه.. إلى أن قال لها صبي تجاوز العاشرة:

–رأيته في دوار العمدة.

فرحت بهذه الإجابة المحددة. ُه ِر َع ْت إلى دار العمدة. سألتهم.. قالوا:

–كان هنا فعلا , وقد أمر حضرة العمدة خفيره أن يسحبه إليكم, فلم يطاوع وفجأة طار بعيد ا واختفى عن العيون. أحست بالرغبة في الجلوس على الأرض.. الخبر صدمها بعنف.. وللمرة الأولى تشعر أن الولد ثقيل. رأت أن تعود إلى الدار, ربما عاد رشوان فتسأله.. لابد يعرف أي شيء عنه.

علي الباب كان رشوان واقفا وكل جزء في جسمه يطلق شرار الغضب, وصلعته تتحد الشمس وتكسر سهام أشعتها. ابتدرها:

–أين كنت يا هانم?

–أين كنت أنت? سألت عليك في الجمعية وعند شيخ الخفراء وعند العمدة.

–ما المناسبة?

–أردت أن أسألك عن الملك.

–وهل وجدت ِه?

–دعنا منه الآن.. ماذا بك?.. هل تعاركت يا رشوان?

–نعم

–لماذا ومع من?

–مع من كنت تبحثين عنه.

–كنت أبحث عنك.

–كنت تبحثين عن الديك.

–ماذا بك يا رجل? أنت تغيرت.

–أنا.

–نعم أنت.. هل نظرت إلى وجهك في المرآة?

–دون أن أنظر.

–أنت لم تقل أين كنت.

–كنت نائًما .

–والديك?!

–هاجمني وطار.. ما رأيك? هل أنت سعيدة?

–أنت شخص غير طبيعي.

طارت يده فجأة وسقطت على وجهها.. صرخت.

–قطعت يدك.

صفعها على الخد الثاني.

–انت اتجننت.. والله لن أبقى في البيت يوم ا.

استدارت عائدة كما هي تغالب الدمع.. لكنها لم تستطع أن تمنعه

وهي تلقي الولد في حجر أمها.

13@ @

كم هو موحش..!

البيت.

كم هو ممل..!

المقام به.

كم هو بلا طعم..!

الطعام فيه والشراب.

كم هو مرعب..!

ذلك السكون المحيط بي.

كم هو سخيف..!

ذلك الهدوء الذي يخيم كالعفونة.

وكم هي بغيضة..!

رائحة الوحدة والفراغ.

سبحان الله.

لماذا يجعل للزوجة والولد كل هذه الأهمية?!

دار في البيت وحول نفسه.. تساءل كيف يتسنى له أن يتقي ساعات ثقيلة يصبها فوق روحه الضجر المر.

كان يعرف طريقه إلى فندق نجوم الليل.. لم يأت إليه منذ تزوج..

لكم جاء إلى القاهرة وتجول في شوارعها الفسيحة المسفلتة وقضى ليالي طويلة متنقلا بين مقاهيها وملاهيها. لم تكن خلالها تر عيناه النوم إلا مع انهزام الظلام وتراجعه أمام زحف النور.

لقد تغيرت المعالم وزادت السيارات بشكل غريب ومزعج.. ما هذه الشوارع المزدحمة. الناس يهرولون ويندفعون. الباعة في كل مكان وكذلك رجال الشرطة.. الضجيج.. كم هو قميء منظر المدينة بالنهار.. وكم هي ساحرة بالليل.. قادرة على الإمساك بزوارها وإسعادهم حتى لو باعوا في سبيلها ملابسهم.

ها هو الفندق. سلم على أصحابه القدامى.. مات من مات ورحل

إلى الخارج من رحل.

طلب غرفة تطل على ميدان العتبة.. ما أحوجه إلى أن يقيم في الغرفة نفسها التي تعود أن يقيم بها أيام الشقاوة.. لو كانت مشغولة سيطلب منهم أن يخلوها له.. كما كان القدامى يفعلون.

حين سألهم عن الغرفة, قالوا إنها خالية.. شعر بالرضا. اعتبر هذا الموقف شهامة من القاهرة وبداية مشجعة, وقدر أنها تفتح له أحضانها حتى ينسى كل ما يهمه ويحزنه. وهل هذا ممكن؟ »تساءل في أسى .«

أخذ حمام ا واستشعر الجوع ففتح لفافة كانت بها بطة سمينة سلقتها محبات ولم َت ْط ِه عليها طعام ا بعد. جلس أمامها. شرع يأكل فيها قطعة قطعة حتى التهم نصفها.. نام على أمل أن يخرج إلى القاهرة في المساء.

أطل في المرآة. راعه وجهه.. كان غريبا ومرعبا.. استاء كثير ا لما حدث .. استدرجه الوجه إلى الديك.. تطورت الأمور إلى الحد الذي مزق الأسرة.. ها هي محبات في جانب وهو في جانب.. أعطاها ظهره واتجه إلى الفراش. عاد ينظر إليها فرأ الديك يخرج له لسانه, المرآة تحتل نصف الجدار.. أغمض عينيه لينام.. انتظر واستسلم للنوم..

لم يأت.. الأفكار والهواجس هي التي أتت وراءه من القرية.

فتح الجريدة وتطلع إلى إعلانات دور السينما. الأفلام أجمل تسلية.. فيلم سبارتاكوس في مترو.. ريا وسكينة في ديانا. الهروب الكبير في كايرو. شباب امرأة ونفوس معقدة في كوزموس.

ارتد ملابسه وانطلق إلى شباب امرأة.. شاهد الأفلام وحده.. وقزقز اللب وحده.. وضحك وحده.. واندمج مع هيتشكوك ونسي كل شيء. خرج قبل الثانية عشرة في مزاج أفضل. كان يستنشق النسيم الليلي باشتياق.. اشتر كمثر وعلبة زبادي.. عاد إلى الفندق. خلع

ملابسه ووقف عاري ا أمام المرآة.. سقى جروحه بالميكروكروم.. دقق فيها. تصور أنها زادت واتسعت ولم تبدأ َب ْع ُد طريق الشفاء.. تطلع إلى بدنه.. كان غزير الشعر بشكل غريب.. ليس في بدنه موضع إلا وهو مختف تحت غلالات الشعر الأسود الطويل من أسفل ساقيه حتى رقبته.. أعطى ظهره للمرآة وحاول أن يراه.. كان ظهره بالضبط مثل صدره شعر كثيف من أعلى كتفيه حتى كاحليه.. الجو حار.. اكتفى بالفانلة واللباس .. استدار إلى الفراش.. وقعت عيناه على المرآة.. كانت صورة ظهره كثيف الشعر لا تزال في المرآة .. دنا منها.. لم يجد وجهه, وظل ظهره هو الذي يملأها وكل شيء أمام المرآة ظاهر فيها سواه.. ظل ظهره يقف أمامه.. لأول مرة يراه بوضوح ودقة.. تأمله لحظات وهو في نصف وعي. هل توقفت المرآة عن عكس صورته واحتفظت بظهره. مط شفتيه وانحط على الفراش.. الديك.. محبات. الولد. القرية. العالم. ظهره. أهله.. تداخلت الصور.. وجه أمه على جسم الولد.. رأس الديك على بدن محبات.. بيته مقلوب.. الديك يطير بلا رأس. بعد قليل تسقط ساقه. أمه تكبر وينبسط لها جناحان.. جناحا ولده.. ولد الديك.. ولده.. ولد الديك.. أمه.. لماذا يا محبات? لماذا كل هذا?.. كيف بدأ الانحراف.. ما الذي يجري بالضبط.. لماذا يبدو كل شيء بدون جذور.. كل شيء محلول.. كالديك الذي انفك رباطه.. كل شيء مفكوك وبلا وتد أو حبل أو قدمين أو طين مغروس فيه.. كل شيء زئبقي. صابوني. زلق.. متداعي ومجنون. ما هو مستقبل مثل هذه الحياة? وما شكل الغد? وإلى متى يستمر هذا الوضع وهو بلا وضع.. ومن الذي يتعين عليه أن يبدأ مشروع الإصلاح والضبط قبل كامل الانهيار?

خلال الأيام الثلاثة التالية زرع القاهرة طولا وعرضا.. زار معظم الأماكن التي تمنى رؤيتها وشاهد المزيد من الأفلام.. وإحد المسرحيات وبرج القاهرة وتمشى على الكباري في الليل وسلم نفسه طويلا للنيل وسحره الغريب:

لا شيء على الإطلاق من هذا الجمال في بلدنا الفقيرة التي تغرق في الغبار والثرثرة والملل.

في الليلة الرابعة استيقظ من عز النوم على طرق عنيف.. كان رجال الشرطة يبحثون عن رجل حاول الاعتداء على فتاة في أحد بيوت حي عابدين, قاومته بشدة حتى أصيبت بأزمة قلبية وماتت منذ أربعة أيام.. قال صاحب اللوكاندة إن ساكن ًا لديهم وصل منذ أربعة أيام وبوجهه جروح كثيرة.

جره رجال الشرطة إلى القسم للتحقيق.. سألوه وأجابهم, عادوا يسألونه فأقسم لهم.. لم يصدقوه و ُأ ْل ِق ي في الحبس ثم ُر ِّح َل في اليوم التالي إلى سراي النيابة. بعد يومين أطلق سراحه بعد أن قبضوا على الجاني واعترف بفعلته.

مر على الحلاق. شذب بقايا شعره وحلق ذقنه. عاد إلى الفندق.

أخذ حمام ا ساخن ًا.. كان ظهره لا يزال قابعا في المرآة.. جمع ملابسه وغادر الفندق عازما ألا يبقى في القاهرة ساعة واحدة.. بدا عليه الانزعاج الشديد وتأثره البالغ من سوء معاملة الشرطة. لم يفته أن يلكز صاحب الفندق بكلمات قاسية تنبهه إلى قلة أصله ورحم الله السابقين.

عندما توقف الميكروباص على الطريق السريع بمحازاة بلدهم وهبط منه, كان المساء هو الآخر يهبط معه. تمشى بين الغيطان وتسلل إلى منزله.

طوح الحقيبة على الكنبة, مضى إلى المطبخ, وضع براد الشاي على النار.. أشعل سيجارة, خلع ملابسه. ارتد الجلباب, عاد للبراد. فتح الراديو.. كانت أم كلثوم تشدو بصوتها القوي الصافي النافذ في آفاق المساء الناعم.. لسه فاكر قلبي يديلك أمان, ولا فاكر كلمة ح تعيد اللي كان.. ولا نظرة.. توصل الشوق بالحنان.. لسه فاكر. كان زمان.

كان طيف الديك يطارده. هو.. ليس غيره من أفسد حياتي وهو.. ليس غيره من يتعين الخلاص منه, ولن تكون هناك أبدا أية راحة مادام هو على قيد الحياة.

حدثه أخوه فتيحة وحدثته أمه عن ضرورة عودة محبات.. قال:

–هي التي ذهبت وعليها أن تجيء.

قال فتيحة:

–لا داعي لأن نصبح مضغة في أفواه الناس.

أكد رشوان أنه لن يذهب مهما حصل.. أخذ فتيحة أمه وأخته فوقية لإعادة محبات.. بكت محبات وقالت:

–لقد ضربني, ولن أنسى له ذلك.

قالت أم رشوان: قبل الولد كنتما سمنا على عسل, ولما جاء الولد يحدث ما يحدث?!.

قالت محبات: أنا لا أعرف ماذا أصابه.. لقد تغير.. أصبح عصب ي ا..

قال فتيحة: آخر مرة شفته. كان ليلة السبوع.. كانت الدنيا لا تتسع لفرحته.. قالت محبات وهي تعاود البكاء: وأيمانات المسلمين ما جرحت إحساسه بكلمة, ولا قصرت في أي شيء.

طيبوا خاطرها وحدثوها عن ال ِع ْشر ة وكلام الناس.. طال الحوار وفي النهاية تدخلت أمها إلى جانبهم.. كلمة من هنا وكلمة من هناك..

قامت محبات وعادت إلى دارها.

لم يكلمها رشوان. اكتفى بالصمت ونام في الحجرة الجوانية.

ظهر الديك في اليوم التالي عند أم محبات. تناهت إليه الأخبار أنها غضبانة وعند أهلها. فتح كل الغرف وفتش عنها..

بعد يومين فوجئت به محبات وهي خارجة من المطبخ ينزل عليها من السطح.. أذهلتها المفاجأة.. كانت قد أوشكت على الاعتقاد أنه رحل نهائ ي ا عن القرية من تضارب الآراء وكلام أولاد العمدة.

هللت فرحة به. عانقته بحرارة وعانقها.. ضمها وأسكنها صدره طويلا .. أسبوعان ويزيد لم يلتقيا.. لحظات في عناق صامت دافئ مشبوب, ثم تركها. استدار إلى حجرة النوم. انحنى على الطفل. تأمل عينيه وجبهته. تحسس بمنقاره يده الصغيرة الطرية المغلقة بمنقاره حاول فتحها , حتى انفتحت . تقطرت في روحه بعض السعادة .

مضت محبات إلى المطبخ تقشر البصل.. استغرق الديك في مداعبة الطفل.. سمعت فجأة بكاء ولدها.. خرجت وبيدها السكين لتر ما الذي يبكيه. طالعها رشوان داخلا . امتقع وجهها. التقطت عينه اليقظة مشهد الديك في حجرته. جن جنونه. اندفع نحوه. قبض على عنقه.. الولد يصرخ. الديك يحاول الخلاص. رشوان بجسمه الثقيل وقلبه المفعم بالألم يكاد يركب على الديك. ذراعاه جاثمة على ظهره ورقبته. قبضتاه تضغطان بقوة على حلقه.. بدا واضحا أنها نهاية الديك لا محالة, وأن روحه على وشك الطلوع.. محبات تصرخ في رشوان:

–حرام عليك.. أرجوك. اتركه.. لماذا تقتله? لم يضرنا بشيء

يا رشوان.. أرجوك. أتركه .

أخذت تخبط على ظهره وتجذبه, لم يكن في عالمها.. كان في عالم

آخر.. هذه هي اللحظة التي ينتظرها منذ أسابيع.. لقد حوَّل حياته إلى جحيم.. لن تتاح له فرصة أفضل من هذه.. هو الذي أدخله السجن ومزق وجهه وتسبب في إهانته وسوف يتسبب في المزيد.. أخذت محبات تجر زوجها بيد واحدة.. فكرت أن تجره بيديها الاثنتين اكتشفت أن اليد الثانية تقبض على السكين.. كان رشوان جبلا ثقيلا . سمعت حشرجة تخرج من حلق الديك.. لم تشعر بنفسها وهي تدس السكين في ظهر رشوان.

سقطت ذراعاه واستدار ذاهلا يحدق في زوجته. سقطت السكين من يدها وانطلقت تصرخ وترتعد, بدت كأنها مصابة بحالة هستيرية.. لقد أفلت الزمام وتبدل الموقف ولم يعد أي طرف قادر ا على فهمه.. الطفل يصرخ والأم تولول وترتجف والديك اختفي من حيث جاء.

فتحت باب الدار وواصلت صراخها.. اندفعت جموع الناس ليلتقوا محبات وهي تتهاوي مغش ي ا عليها.

حمل الجيران رشوان الذي ينزف بغزارة إلى الخارج. حضرت سيارة أجرة يملكها أحد أبناء القرية. حملت الجريح إلى مستشفى البندر المركزي .. عند بوابة المستشفى لفظ رشوان أنفاسه.

سأل الضابط محبات عن وقائع الحدث وأسبابه وظروفه, وهو يفتش في وجهها. هل ما تكسوه هي علامات الذهول والرعب, أم انفعال عاطفي محن ك?

كم صرخة عليها أن تطلقها كي تمنح المصيبة حجمها اللائق?

كم دمعة يجب أن تسفحها, لتسكب على المشهد دماء الحقيقة?

ما الذي يمكن أن تبذله حتى يتفجر الصدق في العيون المتطفلة, والعقول المحشوة بشفرات الظنون?

كيف يجب عليها أن تحذق الكلام؟

كيف بإمكانها أن تسبك قصة تصلح كي تكون ص ك ا للبراءة؟

تمالكت نفسها.. قالت وهي تفزع مع استعادتها لما يفترض أنه قد حدث:

–جاء زوجي ومعه شخص لم أره من قبل. قدمه لي على أنه صديق تعرَّف عليه مؤخرا في القاهرة. فجأة اختطف الرجل مطفأة السجائر وضربه بها على رأسه.. يانهار أسود.. جريت إلى المطبخ.. أحضرت السكين. وجدت المجرم فوق زوجي يفتش فيه.. هجمت عليه بالسكين. أمسك ذراعي وأخذ يلويه.. ضربته في وجهه. تقلب رشوان.. المجرم خطف مني السكين وضرب رشوان في ظهره. صرخت.. خرج يجري.

–لماذا كان يفتش زوجك؟

–لا أعرف.

–صفي القاتل.

–أطول قليلا من رشوان. يلبس قميص ا وبنطلون ا. له شارب أسود وشامة على يمين ذقنه.

–سنه؟

–في حدود الخامسة والثلاثين.

–لو شفتيه؟

–أطلعه من وسط ألف.

لم يستطع رجال الشرطة التحقق من شخصية الجاني. كانت السكينة مبتلة وبها عدد من بصمات محبات, وهذا طبيعي لأنها هي التي أحضرتها من المطبخ.

رددت الإجابة نفسها بالحرف في النيابة.. وكررتها مرة ثالثة وبالحرف بعدها بشهر أيضا في النيابة, ثم حفظ التحقيق لعدم كفاية الأدلة ضد محبات أو هكذا قيل لها.

كعادتها استمرت الحياة, وجفت الدموع في المآقي, واستجاب البشر لدعوة الحياة, فأكلوا وشربوا.. وعملوا وناموا.. صعدوا وهبطوا.. سافروا وعادوا وباعوا واشتروا وأحبوا وكرهوا, ثم كرهوا من أحبوا, وأحبوا من كرهوا وانصرفوا خلال كل ذلك وبسبب كل ذلك عمن رحلوا.

أصرت محبات أن تعيش وحدها في الدار, خاصة بعد أن جاء الملك واستقر معها. عادت الزيارات السياحية بالنظام القديم نفسه.

كانت مفاجأة طيبة لمحبات أن طرق على بابها طارق. لما فتحت وجدت أمامها حسن الرشيدي .. صنع تمثالاضخما للديك وأحضره معه على عربة كارو, ارتفاعه يصل إلى ثلاثة أمتار.. ديك رائع ومهيب.

أرسلت إلى أخيها ياسر ليساعدها في جمع الطوب الأحمر من الفناء الخلفي ومشاركة الرشيدي في بناء قاعدة للتمثال داخل الفناء.. حضر بعض الرجال لإنزاله ووضعه على القاعدة.. جذب الديك الجديد المزيد من الراغبين في الزيارة, ومع الوقت زادت الإيرادات.

@ @14

هناك نساء لا تظهر عليهن أعراض الحمل إلا في الشهر الخامس, تصبح بطونهن ملفتة للنظر.. وهناك نسوة يمكن لأي عين عابرة أن تلمح بروز بطنها وهي في شهرها الرابع, في الوقت الذي تبقى فيه بطون شابات صغيرات حتى الثامن صغيرة الحجم لا تتجاوز كثير ا

سيدة في الرابع.

شرعت العيون تلحظ بعض الريفيات الحوامل; إذ إن طبيعة حياتهن لا تسمح لهن بأن يقرن في بيوتهن كل الأيام. أغلبهن يذهبن إلى الحقول وإلى الأسواق وإلى النهر حاملات السطول والجرار, ومنهن اللاتي يحملن الأواني لغسلها والملابس.

شرعت البطون في البزوغ تدريجيا.. وشرعت المشية في التغير.. السيقان تتباعد والظهور تتراجع, والسرعة تخف. بعضهن طلبن الراحة واعتمدن على الأصغر سنا.. بدأت الألسنة تتسابق مع العيون مع اكتشاف المجهول وفي رصد المستجدات.

إن النساء اللواتي حملن معا, أنكرن جميعا أنهن يعرفن شيئ ا عن الفعل والفاعل.. هكذا.. وحدها البطون اتخذت شكلها المتنامي!!

الأمهات لاحظن سلوك بناتهن وسألنهن, والرجال لاحظوا زوجاتهم وسألوهن. والبنات لاحظن سلوك أمهاتهن وعماتهن وخالاتهن واكتفين تأدً ب ا بالمتابعة وأسئلة العيون والدهشة والتظاهر بالجهل.

لكن الأمر كان مزعجا للأمهات ح ق ا وهن يرين بناتهن تحكين عما يشعرن به, وعما يلاحظنه من تغيير ويلمسنه من أعراض جديدة.

الطمث لديهنَّجميعا توقف.. وبدأ الوحم والطلبات والأمنيات, وظهرت حالات القيء والغثيان وقلة المجهود واستمرار النوم.

أول من اكتشفت أن ابنتها حامل كانت فهيمة زوجة اللحَّاد.. كانت في البداية قد اكتشفت حملها هي, فكتمت الخبر عن زوجها وهو ابن عمها; لأنه طلب إليها ألا تنجب مرة أخر . يكفي أن لديها سبعة أكبرهم تزوج, ويعيش معهم في الدار نفسها ويعوله أبوه. وقد حملت زوجته هي الأخر .. هذا أمر لا غضاضة فيه ويتسق مع حالة العروسين.

لطمت فهيمة خديها وقامت على البنت بعد أن تأكدت من المصيبة فضربتها بيد المقشة, وهي تسألها في جنون:

–من يا بنت.. من؟.. ردي.

قالت البنت الصغيرة: لا أعرف يا أم, والختمة ما أعرف علمت فهيمة أن ابنتها البكرية المتزوجة, قد حملت هي الأخر لثاني مرة, فلم تهتم, ولاحظت أن جارتها أم نوال حملت وزوجها في ليبيا منذ سنتين.

قالت زوجة المسافر لما اكتشفت الأمر.

–يا مصيبتي.. لا أغضبه في غربته أبد ا.

كما ساعدتها أم حنفي ساعدت نساء كثيرات. كان الحمل بالنسبة لهن كارثة, ومنهن من أسقطن الحمل خارج القرية, سواء في بلاد مجاورة أو بلاد بعيدة, أو في الغيطان والزرائب, واضطرت القابلة لكثرة العمل وصراخ المنكوبات الاستعانة بأختها فوز فلديها بعض الخبرة السابقة وقد توقفت منذ سنوات بعد أن مات جنين في بطن أمه ولم يرحمها أبوه.

في البداية لم تنتقل أخبار هذا المهرجان الكبير من الحمل إلا إلى النساء أنفسهن. لم يعد لهن غيره حديثا. نسين تماما كل الموضوعات التي اعتدن أن تشغلهن. لم يتحدثن عن مشاكلهن مع الرجال وطباع الرجال واستبدادهم الفارغ, ولا عن أسعار الحبوب ولا ارتفاع المهور وغلاء الملابس ونقص القطن اللازم للتنجيد ولم تشغلهن كثيرا مسألة مهمة مثل انقطاع لبن بعض الجواميس أو مرارته . ولم يعدن يتحدثن عن تربية الدواجن ولا عن أنواع الطعام أو مرض فلان وحرقة قلب فلانة على ابنها الخايب, ولا حتى عن الشهادة الكبيرة التي حصل عليها فلان ابن فلانة , ولم تعد تمثيليات الإذاعة تشغل بالهن, لكن

الشاغل الأول والدائم هو من التي حملت وممن وماذا فعلت?

أول ردود الفعل المدوية التي تجاوزت كثيرا مجرد السؤال والغضب, كانت مقتل عواد الراعي على يد صهرة المندفع فلم يكن قد دخل بعد بعروسته وتأجل الفرح عدة مرات حتى ظهر الحمل الذي اكتشفته جارتها ولن تكتم السر . لكن التحقيق أخذ مجراه دون الانتهاء إلى سبب ولا حتى إلى تحديد الجاني .

الكل تناقل أخبار الكل, كي يخفف عن نفسه وقع مصيبته, والمعرفة تبدأ من الجيران الذين تتاح لهم فرصة رؤية البنت أو المرأة التي تبقى في دارها لا تبرحها.

ثريا زوجة البنا لما حملت أختها وسلفتها وبنت سلفتها, فكرت في جارتها سليمة وابنتيها.. ما بالها تر الأولاد الذكور وتر الأم ولكن لا تر البنتين, مع أنهما كانتا دائًما تخرجان.. الكبيرة إلى النهر أو الغيط والصغيرة إلى المدرسة.

نهضت من فورها وطرقت الباب.. طلعت لها الصغيرة فسألتها عن مفراك الخبيزة لأن مفراكهم انكسر.. أحضرت لها المفراك فسألتها عن أختها.. فهمت البنت.. قالت لها: عند عمي في طنطا.. عادت ثريا تدقق في بطن الصغيرة.. كان الجلباب فضفاض ا لم يكشف عن شيء.

مصمصت شفتيها وهي تتمتم:

–بكرة المستخبي يبان.

لم يفتها أن تلاحظ كما لابد لاحظت غيرها أن النسوة كلن لبسن جلابيب فضفاضة.

الشاويش الطويل عسكري البوليس. حملت أمه وحماته وأخته وزوجته وأختها.. العجل أبو شوارب سائق الميكروباص حملت

زوجته وابنتاه وعمته العمشة وخالته.. ناظر المدرسة والفراش الأصلع والوكيل السمين ذو الكرش وعدو الشمس وكامل ذو الأنف الكبير المستدير, والشقيق الأكبر لشيخ البلد والمأذون والحلاق وجساس الحمير والأخنف والضرير ومئات غيرهم شربوا من الكأس نفسها.

.. أما سائق السيارة الأجرة فقد حملت بناته السبع, وكلهن لم يتزوجن وكلهن شبه دميمات, مع أن شكله مقبول, لكن زوجته كانت مشهورة بالقبح, والأغرب من هذا أنه كان يميل إليها منذ الصغر, ولم تحمل مع من حملن.

ال َك ْف ُر كله انتفخت بطون نسائه وبناته.. الرجل أصبح يتجنب الرجل وكذلك الشباب, انعدمت أو كادت أنشطتهم المشتركة وألعابهم وسهراتهم وأحاديثهم, واختفت ضحكاتهم التي كانت تتعالى من المجموعات التي لا تنقطع لقاءاتها طوال الليل, وفي الظلام الدامس يتحركون ويصيحون ويضحكون.

يذهب الرجل إلى الدكان ليشتري السجائر والشاي أو غيرهما, فيطلبه بسرعة, ويلح في سرعة الاستجابة مدعي ا أنه ترك ولده الصغير بعيد ا, أو لأن الحمارة سبقته أو لأن الحاجة تعبانة ج د ا أو لأنه ترك الضيوف وحدهم في الدار. يفر بسرعة حتى لا يتعثر في الأسئلة التي حتما ستلقى عليه بلا رحمة.. لن تكون الأسئلة حول أي موضوع إلا الحمل, لسبب بسيط ج د ا هو أنه لم تعد هناك أية موضوعات أخر للحوار.

@ @15

لم يلق أحد على الثمار المتدلية من شجرة الفضيحة حجر ا أو حصاة.. إلا ناظر المدرسة الذي وجه الدعوة للاجتماع في بيته.. جاء بعض الرجال في السر ليتدارسوا الأمر. بدوا صفر الوجوه.. ومن كان

يثير الضجيج من قبل, لم يحس أحد به عند دخوله, ومن كان يفخر ويتيه بالحق أو بالباطل لم ينطق بحرف. ومن كان يدق بعصاه ليعلم الجميع أنه يمر, لم يدق بها واكتفى بأن يستند إليها. ومن كان يقهقه بسبب وبلا سبب, لم يسمع أحد ضحكاته المجلجلة.. لم تنفرج الشفاه ولم تظهر الأسنان ولم تبرم الشوارب لأنها كانت منكَّ سة .. لم يكن يسمع غير صوت التنفس الذي كان أشبه بحشرجة الاحتضار.

مرت القهوة فتجرعها الجميع في عجلة. مضت قرابة نصف ساعة دون أن يمتلك أشجعهم القدرة على افتتاح الجلسة بكلمة لتتبعها كلمات تشير ولو من بعيد إلى الموضوع.

كان طبيع ي ا مهما طال الوقت الحائر أن يبدأ ناظر المدرسة.. كانت بداية ذكية من رجل متعلم.

.. وجه اللوم لمن لم يحضر وعلى رأسهم العمدة وشيخ البلد وهذا يعني أن الحاضرين يتميزون بالشجاعة.. بداية تفتح النفس بعض الشيء.. ثم قال:

–يخيل لي يا جماعة أن هناك وباء أصاب نساءنا, فكل النساء حسب علمي حوامل.

أنكر البعض أن يكون كل النساء.. أطولهم احتج قائلا :

–إلا أمي.

وقال سائق الأجرة:

–زوجتي الحمد لله سليمة, لكن.. لكن

وقال ذو الشعر الأحمر:

–للأسف أسرتي كلها أصابها الوباء ما عدا بنت أختي التي تقيم في المزرعة معظم الوقت.

وهنا قال الحلاق:

–علينا إذن أن نعرف الأسباب ونبحث عن الحل.

من جديد وقع الجميع في آبار الصمت المالحة, إلى أن اندفع السمين ذو الكرش.. لم يكن أحد ينتظر أن يتكلم أو يفيد بشيء في جلسة من هذا النوع.. قال باضطراب تصاحب نبرة صوته رعشة, ربما سببها الرهبة:

–لازم يعرف الصغير قبل الكبير إن بناتنا و.. و.. نساءنا جميعهن ش.. ش.. شريفات, ومهما كا.. كان السبب, و.. فهو خارج عن إرا.. إراد.. إرادتهن. وإذا واحد شكك في واحدة, سيشا.. سيشا.. سيشكك فيهن جميعا.

قال عدو الشمس: عندك حق.. مصيبة وحطت على البلد كلها.. لم ينج منها فرد.

كان شيخ المسجد جالس ا يسبِّ ح ويستغفر ولا يعلق, ومثله كان الضرير والرجل الذي ينظر كثير ا إلى ساعته, أما ذو الأنف الكبير المستدير فقد قال:

–يجب أن نتكلم بصراحة.

قال الناظر:

–ولماذا اجتمعنا إذن, إننا في أشد الحاجة إلى الصراحة.. اجتمعنا حتى لا نخفي رؤوسنا في الرمال.

استعاد ذو الأنف الكبير الخيط وقال:

–كلام كثير يملأ البلد, ملخصه أن ديك رشوان وراء هذه الحوادث

قال السمين ذو الكرش:

–هذا ما سمعته.

اعترض الضرير:

–كلام غير معقول.

قال الأطول:

–وهل حجمه هو المعقول?!

عاد الضرير إلى معارضته:

–أنا غير مقتنع.

قال عدو الشمس:

–كان يجب أن يحضر العمدة.. المسألة تخص القرية كلها.. وهو كبيرها.

قال الناظر:

–أحمد أبو سلامة دخل عنده وخرج قال إنه غير موجود.

قال الحلاق بحسم:

–هو ديك رشوان ولازم يموت.

قال الأصلع بهدوء:

–لازم يموت.. لكن المصيبة تحيط بنا الآن.. فما العمل?

برز الأخنف من وراء السمين ذي الكرش وقال:

–هل تتصور أن يوافق العمدة على ذلك? هو صاحب مصلحة في وجوده.. الإوزة التي تبيض له بيض ا من ذهب.

–والعمل?

–لابد أن نعرض عليه المشكلة.. ممكن يكون عنده حل

ناد الناظر ولده الكبير.

–بطريقتك وفي السر اعرف لنا.. العمدة في دواره أم لا, انطلق الفتى. سادت فترة صمت.. قطعها سائق الأجرة:

–لماذا لم يحضر شيخ البلد؟ لقد رأيته في الصباح.

قال الأطول: ألا تعرف السبب؟

رد سائق الأجرة: لا.

ابتسم الضرير ابتسامة خبث وقال:

–لأنه غير مضار.. زوجته الأولى عاقر, والثانية حامل من الأصل وستلد خلال أيام.

قال السمين: ليس له مصلحة.

استمر الحديث يتبادل أطرافه الرجال بلا نتيجة, وظل الشيخ يسبح ويستغفر دون أن يعلق. ولفت ذلك انتباه الناظر فسأله:

–ما رأيك يا شيخ؟

عبث الشيخ في ذقنه وتنهد ثم رفع رأسه ونظر لحظة إلى اللاشيء:

عندئذ دخل الفتى وقال:

–العمدة موجود.

قال حضرة الناظر على الفور: ما رأيكم يا جماعة؟

رد الجميع في صوت واحد: نذهب إليه الآن.

بهت العمدة عندما سمع أن الرجال بالخارج.. عرضوا عليه الموضوع بكافة جوانبه وبعض ا مما قالوه في بيت الناظر.. طلبوا رأيه.

هز المنشة ذيل الحصان التي لا تغيب عن يده وقال:

–أولا.. نحن مؤمنون.

قالوا جميع ا:

–ونعم بالله.

استشعر أنه بدأ بداية موفقة ضمتهم جميع ا في قبضته, فاستطرد:

–لذلك أنا.. أنا.. أظن أنه أمر الله, وديك رشوان لا دخل له أو على

الأقل ليس بين أيدينا ما يدينه أو يشير إلى أنه هو الجاني. لا داعي للانزعاج, لا تحدثوا لنا هوجة بلا داع.. ولا مبرر للاجتماعات والهيجان, وحتى لو فرضنا أنه الديك. ماذا سنفعل له?..

سنقتله.. نقتله.. وبعدها.. الحاصل الآن أن النساء حملت وكله بأمر الله في الأول وفي الآخر.

صدر من هنا تعليق ومن هناك مثله.. لكن الجميع تقريبا اقتنعوا بكلام العمدة, وخرجوا من عنده أقل غضب ا من ذي قبل, و أكثر إيمان ا بالله وبالقضاء والقدر.

بعد أسبوع فوجئ رجال القرية بدعوة عاجلة من العمدة للحضور طرفه مساء اليوم نفسه. وحين حضروا طلب منهم ضرورة مناقشة الموضوع المهم الذي سبق وحدثوه فيه.. ظل واقفا يروح ويجيء.. أبلغهم أنه اكتشف بالأمس فقط أن نساء بيته جميع ا حوامل ولابد من التصرف.. لابد أن نبلغ الحكومة ومديرية الأمن ووزارة الصحة والوزير المحافظ وسيادة السكرتير العام , ولا مانع من إبلاغ الرئيس شخص يا فهو لن يقبل التخلي عنا في محنتنا .

تبادل الجميع النظرات, واكتفوا بالقول:

–الأمر أمرك يا عمدة.. أنت كبير البلد.

وهو لا يزال واقفا.. يروح ويجيء ويضرب كف ا على كف.. قال:

–أقصد أنكم موافقون على أي إجراء أتخذه, وتفوضونني للاتصال بكل الجهات المعنية.

وافق الجميع وتسلل إلى نفوسهم للمرة الأولى إحساس بأن جزءا من العبء سوف ُيرفع عن صدورهم.. لكن الضرير قال:

–وماذا نفعل في بناتنا يا حضرة العمدة?

ضرب العمدة قبضة يده اليمنى في راحة يده اليسر وقال:

–هذه هي المشكلة .

قال عدو الشمس: المشكلة أن موعد الإجهاض فات.

قال العمدة بعد لحظة صمت: ليس هناك من حل إلا أن يتولى كل أب رعاية حفيده من ابنته غير المتزوجة.. كل فرد يشيل همه, ما دام يؤمن أنه أمر الله, ويخطب الشيخ التلاوي والشيخ برهام في مساجد القرية مؤكدين أن بناتنا شريفات وأن ما حدث يشبه الطاعون.. شيء في الجو.. نقله الهواء.

قال الأخنف: أنا قلت هذا يا عمدة.

قال العمدة: والله براوه عليك يا وله.. ومن رأيي أن تبدأ البلد في وضع زيتها على دقيقها.. يعني عقد اتفاقيات لتزويج هؤلاء البنات من شبان البلد.. وكلنا أهل.. بالمناسبة أنا عندي ثلاث بنات.

كح الشيخ فصمت الجميع اعتقاد ا أنه سيقول شيئ ا.. كح ثانية فصمتوا, وبالفعل بدأ يبلع ريقه ويحرك لسانه استعداد ا للكلام كما يفعل دائًما .. وكان قد ظل طوال الاجتماعين صامت ا.. قال:

–لا أستطيع أن أقول ذلك على المنبر ولا أظن الشيخ برهام سيقول شيئا من هذا.

اندفع الرجل الذي ينظر كثيرا في ساعته: لازم تقولوا.. إن بناتنا شريفات .. لازم.

أيده ذو الشعر الأحمر صارخ ا في الشيخ.. تدخل العمدة وقال:

–واحدة واحدة يا جماعة.. قل لنا يا شيخ حامد هل تشك في أحد؟

ظل الشيخ صامت ا, فقال العمدة:

–انظر يا مولانا إننا سوف ندخل إلى فتنة لا تبقي ولا تذر, وأنت

عندما تقول ما أطلب منك قوله.. أقصد الذي نطلبه جميع ا منك..

إنما تحقن الدماء وتحافظ على الوحدة الوطنية وتجنب البلد مشاكل كبيرة.

كان الناظر قد لاذ بالصمت طويلا , ولما رأ حالة الشيخ وصمته البركاني قال:

–أنا من رأيي أن يظل الموضوع بعيد ا عن المساجد.

قال ذو الشعر الأحمر: على الأقل يدعو لنا الله أن يخرجنا من هذه المصيبة التي لا كانت على البال ولا على الخاطر.

وهنا قال الشيخ:

–لكي تخرجوا من المصيبة ارجعوا إلى الله.. بالإكثار من الصلاة والصدقات وفعل الخيرات والدعاء, وأن يهتم الغني بالفقير,

وتقام الموائد للجميع أيام الجمعة.. هذه هي القربات إلى الله..

لعل وعسى .. وفرج الله قريب.. (% (#ó r& t#) ö|]θèùu èï%©!$# y“ïš$t7ïè≈tƒ

4 «!$# ‘§ïπuH÷q ïB (#θäÜuZø)s? Ÿω öNîγÅ¡à Pr& #’n?tã— (الزمر : 53)) .

توقف الجميع فجأة بعد أن اقتحم القاعة خفير يزعق:

–الحق يا حضرة العمدة.. حسن انطخ.

–حسن من يا خفير الشوم?

–حسن الرشيدي.

–من الذي قتله?

–لم نلحقه

–هرب?!

ساد الهرج لما بلغت الحاضرين ولولة النساء. تدافع الجميع نحو

باب الخروج.

صفق العمدة بيديه. جاءته زوجته تمشي على مهل وتلقي أمامه فردتي حذائه. قالت:

–ابن الرشيدي كان على علاقة بنجو ابنة راغب بك.

لملم العمدة أطراف عباءته وهو يضع قدميه في الحذاء, وقال:

–نقطينا بسكوتك.

لحقت به كلماتها قبل أن يختفي ذيله عن عينيها:

–أنت لا تعرف شيئا مما يجري حولك يا عمدة.

16@ @

واصلت البطون التقدم للأمام, مضت تكبر وتكبر, وعندما دنت من تمام شهرها السابع شرعت النسوة يشكين من ضربات في البطون وآلام في الظهور. بدأن في التوجع والتأوه, وزاد الألم تدريج ي ا مع تضخم الثقل الرابض في الرحم, ثم دخلن تدريج ي ا مرحلة الصراخ.

انفتحت الأبواب وجرت العيال في الشوارع تنادي القابلة وأختها وتنادي أي سيدة كبيرة في السن, لعلها تساعد ولو بالرأي.

لم يستجب مدير مديرية الصحة لطلب عمدة القدرية أن يبني مستشفى ولادة طوارئ على شكل مخيم يتسع لمئات الحوامل توشك كل منهن أن تضع وليدها. تحدث إلى المحافظة واستعان عليه بأعضاء مجلسي الشعب والشور والحزب الوطني بلا فائدة.

أخيرا قرروا إرسال بعثة من عشرين طبيبا متخصصا في أمراض النساء, ومثلهم من الممرضات وعدة أطقم توليد لإنجاز المهمة على أرض القرية وفي بيوت أصحابها.

خصص العمدة للأطباء دار ا من دياره, واستقبل شيخ البلد

الممرضات في دار أخيه المسافر.

عرف الصحفيون الخبر, فقدموا بآلات التصوير وأجهزة التسجيل ولحقت بهم الإذاعات ومراسلو وكالات الأنباء العالمية والقنوات التليفزيونية لرصد الحدث العالمي الكبير.. مئات النساء على وشك الولادة في وقت واحد تقريبا لأول مرة في العالم قرية كاملة حملت نساءها معا ويلدن معا .

استعد الأطباء والممرضات للحاق بأي حالة يبلغ أهلها أنها توشك على الوضع, وسرعان ما تعالى الصراخ وتوالت الدعوات وأسرع الأطباء ملبين النداء.. كل طبيب معه ممرضة. يقوم بالفحص وبحث الحالة ويأمر بتجهيز ما يريد من فرش نظيف وماء ساخن وإضاءة كافية وملابس نظيفة وقطن وصابون.

القرية خلية نحل.. يحدث فيها كل شيء في الدنيا في وقت واحد.

الكل يجري . يتحدث ويدعو الله ويحمل أشياء. يطبخ ويأكل ويشرب وينادي ويسهر وينام ويقع من طوله.. يموت.. يحيا.. يولد..

يمرض.. ينزف.. يصرخ.. يبكي.. يضحك.. يفرح.. يدهش..

يضرب ك ف ا على كف.. يلطم خديه. ُي غشى عليه. يحمد الله.. يتبادل الجميع الأدوات.. تسرع السيارات إلى البندر لتحضر أشياء تنسى بعضها ويتذكر من كلفوه بعضها.. تعود السيارات إلى المدينة.. الليل يهبط.. يجهز الرجال الكلوبات. ذكر الله لا يبرح الألسنة والقلوب..

النظرات تتنقل بين الأمهات والسماء.. قرية بكاملها تلد حتى الرجال.. يخرج البعض نقود ا كان يخفيها لوقت حاجة.. ويبيع البعض شيئا مما يملك, ليشتري على عجل وبأي سعر ما يلزم للحفاظ على حياة الوالدة والمولود.. كل النساء الحوامل ينمن على الأسرة والأفران

التي غطتها البطاطين والملاءات. كل الرجال والعيال يتمددون على الأرض وفوق أكوام التبن والسباخ وفوق الأسطح, ولا يسأل أحد عن أحد, ولا يسأل أحد عن طعام, أي شخص يأكل من أي مكان..

البيوت الميسورة أعدت الصواني وأخرجتها أمام الدور. حطتها على المصاطب ليأكل من يريد. بعض الأطباء ساعد في توليد بقر وجاموس وحمير ومعيز تصادف وضعها مع البشر.

كل المواليد تقريب ا لم تبق في الأرحام غير سبعة أشهر.. القرية كلها تلد خلال أسبوعين فقط.

سوَّد الصحفيون مئات الصفحات بالأخبار ووصف الوقائع والطرائف والحوارات. أسعد اللحظات وأتعسها.. الحالات الخاصة. الأسماء المقترحة.. إحصائيات مختلفة.

كانت هناك عشر حالات ولادة في بيت العمدة وحده, عنده أقام الديك أطول مدة, كانت بناته يخفونه ولم يعرف العمدة بأمره إلا بعد أسبوع وبالصدفة.. هدد العمدة أنه ينتظر فقط رؤية المواليد, ولو تأكد أنها تمت إلى الديك بأدنى شبهة لقتله فورا ولن يمنعه أحد من ذلك.

لما رأت المواليد النور. فتش الأهل فيها. كان من اليسير إدراك علاقتها بالديك.. ليس إلا القليل منها يشبه أمهاتهم, والكثير منها يشبه ولد محبات, وهناك من له لوزتان تحت ذقنه, ومن بيده ثلاثة أصابع أو أربعة, ومثلها في قدمه.. الجميع اتصلت أذرعهم ببطونهم بغشاء جلدي عريض كالأجنحة لا ينقصه إلا الريش, ومنهم من يجسده شعر أصفر وأسود وأبيض.

تجمع الرجال بعد أن أيقنوا بأن الفاعل واحد ووحيد ومحدد, احتشدوا أمام دوار العمدة, وكل منهم يحمل عصا غليظة.. كانت

إحد بناته قد ولدت والتمس ملامح الديك في وجخ المولود بوضوح. نزل العمدة جاهز ا.. كان يحمل بيده مثلما يحملون.. عصا غليظة, عازم ا على أن يضرب بها الضربة الأولى ليدشن عملية الضرب الكبر .

علمت محبات بما عزم عليه الرجال. أسرعت إلى دارها. قالت للديك: إن أهل القرية يأتمرون بك وقد صمموا على قتلك, فهيا بنا نهرب.

خطفت كيس نقودها وتسلقت السور الخلفي للفناء. سبقها الملك إلى النزول في الجانب الآخر ليحملها عندما ترقى السور. رفضت وتدلت فهبطت.. ركضا قدر طاقة محبات التي حملت وليدها الثقيل.. قطعا الحقول حتى بلغا الطريق السريع. كانت السيارات تعدو في اندفاع مجنون لا تلتفت لعابر.

أشارت إلى سيارة ميكروباص, لم تأبه بها أية سيارة لعدة دقائق, ثم وقفت واحدة.. قبلها قفز الديك فوق سقف الميكروباص وكانت حائرة كيف يتسنى له الركوب. دخلت وطفلها السيارة التقطت أنفاسها أخيرا بعد نجاح المحاولة المبكرة للهروب. تركت القرية ورجالها الذين أجمعوا أمرهم على إلحاق الضرر بأنيسها الوحيد.. كان السائق والركاب يعبرون عن دهشتهم لمنظر الديك;. لم تعرهم أي اهتمام.. هدأ قلبها.. وتمكنت أن تلقم الولد ثديها وتفكر في المكان الذي سوف يسعها والديك.. ردت على نفسها بسرعة.. أي مكان.. المهم أني لن أفرط فيه أبد ا ولن أسمح باغتياله.. لم يعد لي غيره.. يجب ألا يعرف أحد من أهل القرية مكاننا, فهم في الأغلب لن يتركوه.

لحظات واهتزت العربة بقوة. رفعت رأسها قليلا وكانت تتابع بين

الحين والحين ظل الديك على الأرض وهو مرتبط بظل السيارة المندفعة إلى البندر. كانت الشمس قبل الغروب ما زالت تسقط على كل شيء.. صرخت في هذه اللحظة وخطفت ثديها من فم الطفل وهي تر الديك يطير بعيدا..

صرخت في السائق كي يقف. وضعت الطفل على مقعدها.

صرخت فيه مرة ثانية وبقوة.. توقف.. أسرعت تجري في إثر الديك..

تصرخ وتناديه:

–ارجع يا ملك.. ارجع يا روح محبات.. ُع ْد إليَّيا روح محبات.

ماض في سبيله الملك, يرفرف بقوة ويتجه شرقا فوق الحدائق والحقول نحو عالم آخر وقر أخر.. وظلت محبات تصرخ بينما الملك يبتعد ويبتعد.. يتضاءل ويتضاءل حتى لا تكاد تبدو منه غير حركة أجنحته حتى تلاشى في الأفق البعيد.

ظلت تجري وراءه وتسقط في برك وتراب وطين تصطدم بشجيرات صغيرة.. تنادي:

–ارجع يا روح محبات.. يا روح محبات.

تقع وتنهض وتصطدم بالناس والشجر والحجارة, تتعثر وعيناها على الأفق البعيد الذي ابتلع روحها وغاب فيه الملك.

تجرحت قدماها وتمزقت ملابسها وهي تجري ولا تعترف أنه ابتعد أو اختفى ولا تقر بعجزها أو بعد المسافة بينهما.. وتثق أنها لو واصلت النداء والسعي خلفه سوف تلحق به وتستعيده.

مضت تجري وتتخبط وتنادي .. تخوض في المياه وتجتاز الحقول.

وتدوس على تراب أوحلته دموع فجيعتها..

علت في السيارة صيحات الاستياء والدهشة. لقد طال انتظارهم

لأم الولد. نزل أحد الركاب. مسح الطريق بعينيه. لا أثر لها ولا لغيرها. ليس على الطريق إلا السيارات المسرعة.

توالت التعليقات الحائرة. السائق يود أن ينطلق. ماذا سيفعلون بالولد؟ كان واضحا أنه مأزق متشابك وحرج.. مضى الحوار بين الركاب متخبط ا.. السائق يسب كل شيء.. الجميع مكبلون.. اقترح أحد الركاب ترك الطفل على قارعة الطريق. صرخوا فيه.. واتهمه أحدهم بالجنون وسبه صاحب الاقتراح فقام الرجل وهجم عليه.. حال بينهما الركاب. أبد الجميع رغبتهم في مواصلة الرحلة. رجل يلبس بدلة كاملة زعق مطالب ا بالتحرك. لقد ترك عمله لأن أهله أبلغوه بأن زوجته تعاني من ولادة متعثرة. قال آخر إن عليه حضور جنازة عمه , وثالث قال إنه ذاهب لاستقبال ابن أخته القادم من دولة عربية ولا يعرف دارهم التي انتقلوا إليها. قال رابع إنه حجز لأمه عند طبيب مشهور وها هو قد تأخر عن موعده.. واصل الحوار الغوص في وحل الرغبات الملحة والمتعارضة ومع ذلك فكلها ترتبط بوتد واحد هو.. الولد.

كان طريق الخلاص تقريب ا شبه مسدود, خاصة بعد أن شرع الطفل يبكي, ويعلو تدريج ي ا صراخه.

دمدمت من بعيد دراجة نارية, دنت وفوقها شرطي. أوقفه السائق وعرض عليه المشكلة. قال الشرطي:

–لو لا أني في مهمة سرية وعاجلة لذهبت للبحث عن أم الولد

قال السائق: المشكلة في الطفل, أنا أريد أن أمضي لحالي.

الشرطي: سلمه إلى أقرب قسم.

السائق: أنت تعرف أنهم لن يقبلوا طفلا رضيع ا, وهو كما تر لا يتوقف عن الصراخ.

سأل الشرطي: ولماذا نزلت أمه من السيارة؟

السائق: كانت تجري وراء ديك

الشرطي: وأين كان الديك؟

السائق: فوق السيارة.

الشرطي: في القفص طبعا.

السائق: لا.. كان وحده.

الشرطي صرخ في السائق: كيف توافق على وضع ديك وحيد ا أعلى السيارة؟

السائق: إنه ديك ضخم, في مثل حجمي على الأقل.

نظر الشرطي إلى السائق باستنكار وقال: ديك في مثل حجمك..!

–نعم.. أقسم لك.

–هات رخصك.

–يا حضرة الصول أقسم لك.

–هات رخصك.

تنهد السائق وقال: سنية السبب.. الله يخرب بيتك يا سنية.

سأل الشرطي: هل اسمها سنية؟

قال السائق في ضيق: سنية.. أمي.

–وما علاقة أمك؟

–دعت على قبل خروجي من البيت.

–لابد أنك تستحق.. خلصني.. هات الرخص.

أحضرها السائق. فحصها الشرطي يبدو أنها كانت سليمة.

أعادها إليه قائلا وهو يدوس بنزين دراجته فيصرخ الموتور كأنه يهدده:

–ابق هنا حتى آتيك.

انطلق نافث ا دخان ا أبيض. في حنق شديد تابع السائق الشرطي فوق الدراجة وهو يتلو على الطريق, وعاد يسب سنية.

ظلت المشكلة جاثمة فوق مصائرهم بينما المساء يتمشي هابطا في اتجاه الأرض.. طلب أحدهم من إحد الراكبات أن تحاول إرضاع الطفل. اعتذرت لأن صدرها خال من اللبن.

في فورة الغضب الهستيري التي استولت عليه فجأة, تقدم السائق من الطفل. حمله ووضعه على التراب بعيد ا عن الأسفلت. أقسم ليتركه, وأسرع إلى موضع القيادة.. ثار الناس, وهددوه بإبلاغ الشرطة برقم السيارة.. ضرب المقود بكفيه:

–رسوني على بر.. بنت الكلب تركت ولدها, وأنا وأنتم وراءنا مصالح.. ما العمل?

زعق وسب الدنيا جميعها وبح صوته وكان يبكي من الحيرة والسخط. نزل أحد الركاب ورفع الطفل عن الأرض وأخذ يربت عليه..

–أنا ممكن أحل المشكلة.

توجهت العيون والأبدان والأعصاب إلى مصدر الصوت. كان فتى يقبع في قاع العربة.. اكتشفوا كم هو ضئيل الجسم ج د ا.. كلهم رددوا في َن َف ٍس واحد.. كلمة واحدة:

–في عرضك.

بهدوء الذي درس المشكلة من جميع نواحيها قال:

–نحن نعرف أين ركبت أم المولد.

قالوا جميع ا وبحماس: نعم

–ونحن لا نعرف إلا أن معها ديك ا كبير ا ج د ا.

–قالوا جميع ا: نعم.

–أنا لست في عجلة من أمري.. أنا سأحمل الولد إلى قريته وأسأل عن أهله بهذه الأمارات.

صرخ السائق: ينصر دينك.

وقالت سيدة مسنة : يحميك يا بني.

–أطلب أولاأن تعيدني إلى هناك.. المكان نفسه الذي ركبت منه.

–من عيني.

–وليس معي نقود.

–لا تدفع الأجرة.

–أريد أجرة ركوبي في العودة.

–جنيهان يكفيان?

قال زوج السيدة:

–وربع جنيه من كل راكب.

صرخ الجميع فرح ا وكان السائق أعلاهم صوت ا.. كان جو السعادة الذي يشيع في السيارة غريب ا.. كمية البهجة التي علت الوجوه تدعو للدهشة. كأنهم كانوا سجناء تحت الأرض منذ أعوام.. مضوا يهللون.. ردد السائق بعض الأغنيات المشوَّهة بصوته الأجش الخشن.. ما كل هذا الهم الذي أزاحه الفتى الصغير الضئيل.. أهكذا تتعقد الأمور وتستبد بالناس وتمسك برقابهم وأرواحهم, ثم يحلها شخص, هو في العادة زاهد أو بسيط غير متكالب. ها هي السيارة المحملة بالبشر من كل صنف ومن كل مكان وإلى كل غاية تكاد تطير على الطريق, ترقص وتغني وتحاول أن تلحق آخر خيوط النور

والأمل.

أما هناك فكانت أم الولد تحاول أن تلحق بآخر ريشة يمكن أن تربطها بالمحبوب الطائر والطائر المحبوب. كان يجرها بخيط رفيع.. رفيع, ولما غاب, بقي لها منه الطيف. مضت خلفه طيعة تتبعه, ولما غاب الطيف راحت تندفع في أثر سكة رسمتها الأجنحة على صفحة الفضاء.

– هان عليك الولد.. يا قلبك.. هانت عليك أم الولد.. محبات

واصلت نداءها: يا روح محبات.. عد.. يا روح الروح.

@ @17

خرج إخوة رشوان وإخوة محبات يسألون في القري التي أشار الفتي الضئيل إلى أنها اخترقت أراضيها بحث ا عن ديك ضخم يطير. خرجوا مرات عديدة وكلفوا الأدلة والأصحاب والمعارف من أهل هذه البلاد حتى عثروا عليها بعد أسبوعين ممزقة الثياب, متسخة شعثاء الشعر وحافية.. بادية الهزال جالسة بالقرب من أكوام القمامة.. هل الجنون هو الوجه الآخر للحب? أم هو الوريث الذي لا وريث سواه إذا الحب ارتحل?

كان منظرها فيما حكى الذين عثروا عليها من أهلها يمزق القلب ويبكي الحجر.. مسكينة.. ذهب عقلها أو كاد.. حملوها إلى دارها وجيء بالأطباء واحد ا بعد الآخر, وكانت أمها وأختها تلازمانها ومعهما الطفل, حتى ُق دِّ َر لها أن تفيق تدريج ي ا وتعي ما حولها, وتفهم ما يجري وتتذكر وتتخلى عن التوتر الحزين, وتحسنت صحتها البدنية واتجهت تدريج ي ا إلى صورتها الأولى, مع كثير من الصمت والشرود يغلفان مظهرها وعينيها وقلبها النعسان.. لعدة شهور عاشت على

طرف الخبل.

حين تماسكت خرجت إلى الفناء.. جلست على جذع الشجرة ووقعت عينها على تمثال الديك الذي صنعه حسن الرشيدي.. تمثال كبير ومهيب.. أطالت النظر إليه, ولفتت انتباهها زقزقات العصافير على الشجرة, حولت أنظارها إليها, مضت تحدق فيها متطلعة ومتشوقة كأنها تتوقع أن تحمل لها العصافير أخبار ا عنه.. أين راح ومن اللواتي غمرنه بالقبلات? ومن اللواتي ضمهن إليه? شخص حبيبي كان دائما هنا, حتى قبل أن يجيء ثم اختفى.. اختفى بقسوة لا تليق به حينما كان.. ولا يزال في عناد يصر على الاختفاء, ورغم ذلك فقد كانت تحلم به يطوف حول مرقدها ويحك أشواقه في زجاج النافذة.

بدا جل ي ا على وجهها شحوب الفراق وهي تأسى على زمان قد مضى.. لكنها أبد ا لا تقبل أن يحرمها من عودته, وهي لذلك تتأهب لقدومه, والعيون دوم ا مصوبة نحو السماء. فهل تمضي في رحلة الحب دونما حبيب? ينغمر قلبها في نبع العشق كأنه لا غاية:

رحلت.. قلبي وروحي معك.. كان يمكن أن نكمل العمر الجميل معا. فمن تراه غيرك يستطيع أن يشغل موضعك? إلى أين مضيت? قل لي بربك هل فجأة مللتني وتمنيت الخلاص? وكان الهجوم علينا فرصتك, ما أبشعه من توقيت. وأنا أفر بك منهم لأفوز بك لي ولا نبقى إلا معا.. في اللحظة التي كنت فيها أستمتع بالفوز العظيم والنجاة من كيد الماكرين إذا بك تهدم كل شيء, وتحلق بعيدا ثم تختفي عن عيوني التي تمنت أن تعيش العمر لك.. الحب لك.. ما أجملك.. ما أعذبك.. الويل لك.. ما أفظعك!!

كنت أنوي إعلان زواجنا رسم ي ا, أنا وأنت تضمنا الكوشة وحولنا

الأهل والأحباب والضيوف والورد والزغاريد, »أنت جنبي عريس بحق وحقيق .«

قبل أن تهم بالدخول طرقت عليها امرأة من القرية. دخلت..

هجمت عليها تقبلها وتحتضنها وتقول: أنت بركة والملك بركة.. ربنا يخليكي لنا.. لم تفهم محبات ما الذي يجري .. أحست أنها لا تزال تعاني خللا في صحتها ولم تن ُج بعد من الصدمة كما يدعي الأطباء والأهل.

سألتها عن سر ذلك, قالت المرأة إنها لم تكن تنجب ولما لمست التمثال دون أن تقصد, أتى الله بالفرج. وجاءت لها بعد أيام امرأة أخر حدث لها نفس ما حكت عنه المرأة الأولى .

حكت المرأتان ما حدث لهما للنسوة الأخريات, فذهبن من فورهن إلى محبات للتبرك وطلب الكرم.

تحسنت صحة محبات العقلية والنفسية لما رأت ما يحدث للناس, وانعدل حالها بعد أن كاد الخبل يودي ببقية عقلها, ولاحظت كثرة من يقومون بزيارة التمثال, فقررت أن تفيد منها. ودعت أخاها ياسر ليزرع لها حول التمثال أشجار الورد والياسمين, وطلبت من سطوحي البنا أن يقيم لها بيتا للتمثال وحده وإلى جواره صندوق ا للهبات.

زاد الوافدون للزيارة وتزين جيد الملك بالورود والعقود , وأشعلت حوله الشموع. وضع البخور وامتلأ الصندوق وثقل وزنه بما فيه.. أفرغته في حجرها بالليل وأعادته إلى موضعه, وقبل مضي شهر يمتلئ بالهبات والنذور.

لم يعد يأتي للتبرك بالملك من تبغي الإنجاب, وإنما من يريد أن ينجح في الامتحان ومن يريد الفوز في الانتخابات ومن يطلب رضا

المحبوب, ومن يود أن يتخلص من خصومه الأشرار, ومن يطلب عملا أو ستر ا أو صحة, ومن يتمنى الراحة الأبدية لوالديه حتى يرث في أقرب وقت ممكن.

وكتب الأولاد بخط كبير على سور البيت »هنا يقيم ديك محبات « بعد سنوات قلدت قر كثيرة قرية محبات وأقاموا الأضرحة الرمزية للديك المهيب الغريب, ولم يستطع أحد أن يعرف حقيقة النهاية التي آل إليها أمره, والمعروف أن الديك حط ببلاد كانت قد سمعت به فأخفت خبره حتى لا تفقده, وكان منه بعد شهور ما كان في قرية محبات ثم انتقل إلى قر عديدة خاصة قرية أم الشعور التي كانت نساؤها يشكين العقم, فكان لها الشفاء على يديه, فعمرت بالبشر الديوك وأقام أهلها له نصب ا تذكار ي ا مرموق ا.

كان الرجال في قرية حوش لبنة يقلدون رجال أم الشعور في كل الأمور, فلما مر بهم الملك وعاش فترة ونعم بمواهبه أهلها قرروا إقامة نصب تذكاري له على غرار ما فعلت أم الشعور.

سمعت بالديك قرية كفر النعناع فسرقه عمدتها; إذ أرسل رجالا على رأسهم حلاق صحة وممرض. توصلا إلى الديك وخدراه بزجاجة تطلق رذاذ ا مخدِّر ا أحضرها ابن العمدة من دولة متقدمة وحملوه ليلا إلى قريتهم وعاش بينهم ردح ا, وانتقل إلى أخر هاربا من نسائها وبعض رجالها, في القرية الجديدة بقي فترة إلى أن فرَّهابا بسبب حوادث قتل جماعية نتجت عن معارك دامية نشبت بين عدد من العائلات.. تناحرت عليه طلب ا للاستئثار به.

قرر الملك أخير ا البحث عن عالم آخر.. انطلق إلى السماء.. علا وعلا ميمًما وجهه شطر قرص الشمس المودع. ضرب الأجنحة بقوة

وواصل الصعود نحو البؤرة البرتقالية المهيبة. كان قرص الشمس يكبر ويحمر ويصفو, تخايل جبينه أطياف الرضا بالنهاية.

هبط الديك على القرص. ظل باسط ا إلى أقصاهما جناحيه. عانقه. اتحد به. مضت الشمس تهبط في الأفق البعيد وهي محملة بالكائن الأسطوري الطالع من رحم الأرض.. لم يتسع القرص للجناحين الهائلين فبرزا من الجانبين عن يمين وشمال. وما لبث ال ُعرف الأحمر أن ذاب, وكذلك ذابت اللوزتان. سال نهر أحمر وانتشر على القرص الذي كان يوالي هبوطه في بحر المد البعيد.

–‡ÑÛûàÜÛ@Š@ @

مجموعات قصصية

–1 عقدة النساء 1978 المؤلف

–2 كلام الليل 1979 المؤلف

–3 العجز 1983 دار الهلال

–4 عسل الشمس 1990 هيئة الكتاب

–5 شدو البلابل والكبرياء 1995 مختارات فصول

–6 الغندورة 1996 قصور الثقافة

–7 زهرة البستان 1999 قصور الثقافة

–8 قناديل 2003 كتاب الجمهورية

–9 سوق الجمعة 2008 كتاب اليوم

–10 رائحة الوداع 2008 قصور الثقافة

روايات

–1 أشجان 1980 العربية للنشر

–2 الناب الأزرق 1982 المؤلف

–3 السقف 1984 هيئة الكتاب

–4 عشق الأخرس 1986 أخبار اليوم

–5 شفيقة وسرها الباتع 1986 دار الغد العربي

–6 موسم العنف الجميل 1987 هيئة الكتاب

–7 عصر واوا 1993 دار الهلال

–8 بذور الغواية 1994 هيئة الكتاب

–9 روح محبات 1997 المركز المصري العربي

–10 حكمة العائلة المجنونة 2000 دار الهلال

–11 الحمامة البرية 2001 مركز الحضارات العربية

–12 بريق الشراع 2003 هيئة قصور الثقافة

–13 قبلة الحياة 2004 دار المقاصد

–14 أبقي الباب مفتوحا 2005 دار الهلال

–15 كسبان حتة 2006 الدار المصرية اللبنانية

–16 المفتون 2008 دار الهلال

دراسات

–1 نظرات في المرأة والزواج 1986 دار الغد العربي

–2 محمد مندور شيخ النقاد 1987 دار الغد العربي

–3 نجيب محفوظ كاتب العربية الأول 1988 قصور الثقافة

–4 إحسان عبد القدوس عاشق الحرية 1990 قصور الثقافة

ط 2 2006 المجلس الأعلى للثقافة

–5 أدب الرحلة في التراث العربي 1995 قصور الثقافة

ط 2 2008 الدار المصرية اللبنانية

–6 رؤية تمهيدية لرعاية المواهب 1999 قصور الثقافة

–7 فن كتابة القصة 2003 قصور الثقافة

ط 2 2008 الدار المصرية اللبنانية

–8 صناعة التقدم في مصر 2000 هيئة الكتاب

–9 ثقافة المصريين 2006 كتاب اليوم